تأمّـــلات

فى

سـورة الأنعـام

بقلم

حسن محمد باجودة

أستاذ الدّراسات القرآنية البيانيّة

جامعة أمّ القرى بمكّة المكرمة

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

بعونٍ من الله تعالى وفضل ، سبق لنا أن درسنا السّور التّالية دراسةً متأمّلة ، وهي على التّوالى : سورة يوسف ، سورة مريم ، سورة يس ، سورة الإسراء ، سورة الفرقان ، سورة العاديات ، سورة النّازعات ، سورة الحاقّة ، سورة الرّعد ، سورة محمّد ﷺ ، سورة الفاتحة ، سورة الأحزاب ، سورة البقرة ، سورة آل عمران ، سورة النّساء ، سورة المائدة . وبفضل الله تعالى غطّت هذه الدّراسات زهاء ثمانية آلاف صفحة ، وشملت أكثر من ثلث القرآن الكريم ، خلال فترةٍ تزيد على الواحد والعشرين عامًا ، فقد بدأت كتابة الوحدة الموضوعيّة فى سورة يوسف عليه السّلام الّتى تُرْجِمت إلى اللّغة الإنجليزيّة وطبعت سنة ١٤١٢ هـ ، بدأت الكتابة فى مطلع عام اثنين وتسعين بعد الثلاثمائة والألف من هجرة خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ . وها نحن أولاء نستعين الله تعالى على دراسة سورة الأنعام المكّيّة دراسةً متأمّلة ، وهي الدّراسة السّابعة عشرة فى سلسلة هذه التّأمّلات .

وهذه الدّراسة المتأمّلة لسورة الأنعام ، شأنها كشأن الدّراسات السّابقة الّتى تُعْنى بتبيين أوجه إعجاز السّورة الكريمة ، هذا إلى محاولة تبيين أوجه التّرابط بين الآيات الكريمات ، وأجزاء الآية الكريمة الواحدة من ناحية ، وتبيين الدّروس المستفادة من ناحيةٍ أخرى باعتبار القرآن الكريم كتاب هدايةٍ أولاً وآخراً .

وبشأن هذه الدّراسة الّتى بذلت فيها كلّ ما أوتيت من طاقة أشهد الله تعالى الّذى لا إله إلاّ هو أنّى لم أشأ بشأنها كما لم أشأ بشأن أيّ دراسةٍ أخرى أن أحمّل

حرفًا واحدًا من كتاب الله تعالى فوق ما يحتمل . وبشأن هذه الدّراسة كذلك أكرّر ما سبق أن قلته عمّا ماثلها من دراسات بأنّ من له أيّ ملاحظة عليه ألاّ يتردّد فى إعلانها فالحقّ أحقّ أن يّتبع ، كما أكرّر رجائى بأن ينبّهنى - جزاه الله تعالى خيرًا — على تلك الملاحظة بشأن هذه الدّراسة أو تلك .

وفى الختام أسأل الله سبحانه وتعالى أن يأخذ بأيدينا إلى أقوم سبيل ، وأن يتقبّل منّا صالح الأعمال ، وألاّ يحرمنا من الأجر ، وأن يعفو عمّا بدر منّا من تقصير . إنّه سميعٌ مجيب .

﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تحْمِل علينا إصْرًا كما حملته على الّذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

﴿ سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

كتبه الفقير إلى عفو ربّه

د . حسن محمّد باجودة

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

وعميد كلّيّة اللّغة العربيّة

بجامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

مكّة المكرّمة

يوم الجمعة ١٤١٣/١٠/٢٤ هـ

الموافق ١٩٩٣/٤/١٦ م

تمهيـــــــد

بين يدي دراستنا المتأمّلة لسورة الأنعام نودّ أن نشير إلى بعض الأمور :

١ ــ سورة الأنعام مكّيّة[١] عن ابن عبّاس قال : نزلت الأنعام بمكّة ليلاً جملةً واحدةً حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتّسبيح[٢] وعن أنس بن مالك قال . قال رسول الله ﷺ : نزلت سورة الأنعام معها موكبٌ من الملائكة سدّ ما بين الخافقين لهم زَجَلٌ[٣] بالتّسبيح ، والأرض لهم ترتجّ ، ورسول الله ﷺ يقول : سبحان ربّي العظيم ثلاث مرّات[٤] وعن ابن عمر قال . قال رسول الله ﷺ : نزلت عليّ سورة الأنعام جملةً واحدةً وشيّعها سبعون ألفًا من الملائكة لهم زجلٌ بالتّسبيح والتّحميد[٥] وقال ابن عبّاس : رضي الله عنهما : نزلت بمكّة ليلاً جملةً إلاّ ستّ آياتٍ وهي[٦] : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربّكم عليكم ﴾ وقوله تعالى[٧] : ﴿ وما قدروا الله حقّ قدره ﴾ وقوله تعالى[٨] : ﴿ ومن أظلم ممّن افترى على الله كذبًا أو قال أوحي إليّ ﴾ وقوله تعالى[٩] : ﴿ ولو ترى إذِ الظّالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم ﴾[١٠] وقوله تعالى[١١] : ﴿ والّذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنّه منزّلٌ من ربّك ﴾ وقوله تعالى[١٢] : ﴿ الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه ﴾ ويلاحظ على هذا الرّأي أنّه يجعل الآيات الكريمات الّتي جاء فيها ذكر موسى عليه

---

(١) تفسير ابن كثير ١٢٢/٢ والبحر المحيط ٦٦/٤ وتفسير القرطبيّ ٢٣٧٩ والكشّاف ٤٩٤/١ والإتقان ٤٣/١ وغرائب القرآن ورغائب الفرقان مطبوع بهامش تفسير الطّبريّ ٩٢/٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٢٢/٢ . (٣) زَجَلٌ : صوتٌ رفيعٌ عال .

(٤) تفسير القرطبيّ ٢٣٧٩ وتفسير ابن كثير ١٢٢/٢ . (٥) تفسير ابن كثير ٢ / ١٢٢ .

(٦) الآية ١٥١ ويلاحظ أنّ هذه الآية الكريمة ، وهي فى الأحكام ، مرتبطةٌ تمامًا بآيتين كريمتين أخريين هما ١٥٢ : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالّتي هي أحسن ﴾ و١٥٣ : ﴿ وأنّ هذا صراطى مستقيما ﴾ وعليه فما يصحّ فى حقّ آية يصحّ فى حقّ الأخريين .

(٧) الآية ٩١ . (٨) الآية ٩٢ . (٩) الآية ٩٣ .

(١٠) يلاحظ أنّ الجزئيّتين الكريمتين السّابقتين من آيةٍ كريمةٍ واحدة .

(١١) الآية ١١٤ . (١٢) الآية ٢٠ .

السّلام أو أهل الكتاب مدنيّة وهي الآيات الكريمات ٢٠ ، ٩١ ، ١١٤ . ولا يكفى مجرّد ذكر أهل الكتاب أو ذكر موسى عليه السّلام كي يكون سببًا للقول بأنّ هذه الآية الكريمة أو تلك مدنيّة بحجّة أنّ احتكاك المسلمين بأهل الكتاب مباشرةً كان بعد هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة . وإنّ دليلنا على ما نقول يتمثّل فى سورة الأعراف المكّيّة ، ومع ذلك فقد تحدّثت كثيرًا عن أهل الكتاب . ويصحّ أن تكون الآيات الكريمات الثّلاث ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ . وهي من آيات الحكمة ، قد تأخّر نزولها إلى ما بعد الهجرة بسبب ارتباط الأحكام بالفترة المدنيّة بأكثر من الفترة المكّيّة . ويصحّ كذلك أن تكون السّورة الكريمة قد نزلت جملةً واحدةً قبل الهجرة وهذا ما نميل إليه . والله أعلم[١] .

٢- عدد آيات السّورة الكريمة مائةٌ وخمسٌ وستّون آية[٢] .

٣- أولى السّور المكّيّة فى المصحف الشّريف سورة الفاتحة ثمّ سورة الأنعام ، وسورة الأنعام إحدى السّبع الطُّوَل[٣] .

٤- سورة الأنعام إحدى سورٍ خمسٍ تبدأ بالقول : ﴿ الحمد لله ﴾ وهذه السّور هي الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر . وكلّ هذه السّور الخمس من المكّيّ من القرآن[٤] .

٥- فى البخاريّ عن ابن عبّاس قال : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثّلاثين ومائة من سورة الأنعام : ﴿ قد خَسِر الّذين قتلوا أولادهم سَفَهًا بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله . قد ضلّوا وما كانوا مهتدين ﴾[٥] .

---

(١) ثمّة آراء أخر فى الآيات المدنيّة من السّورة الكريمة .

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٩٢/٧ .

(٣) الإتقان والطُّوَل بضمّ الطاء وفتح الواو جمع الطُّولى اسم تفضيلٍ فى المؤنّث . واسم التّفضيل فى المذكّر الأطول والجمع الأطاول .

(٤) انظر الإتقان ٤٢/١ ، ٤٣ .

(٥) تفسير القرطبيّ ٢٣٨٠ والآية الكريمة هي الأربعون بعد المائة . ويتحقّق معنى ما قاله ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما فى الآيات الكريمات ١٣٦ ـ ١٤٠ . وقد أكملنا الآية الكريمة .

٦- كثر فى هذه السّورة الكريمة ورود حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ الدّالّ على التّرتيب مع التّراخى أصلاً . وقد جاء على بابه فى مثل الآية الكريمة الحادية عشرة . قال تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثمّ انظروا كيف كان عاقبة المكذّبين ﴾ وجاء على غير بابه لمجرّد عطف الخبر على الخبر لا للتّرتيب ، فى الآية الكريمة الرّابعة والخمسين بعد المائة الّتى تتحدّث عن توراة موسى عليه السّلام بعد الحديث فى الآيات الكريمات السّابقات عن القرآن الكريم الموحى به إلى محمّد بن عبد الله ﷺ. قال تعالى : ﴿ ثمّ آتينا موسى الكتاب تمامًا على الّذى أحسن وتفصيلاً لكلّ شيء وهدًى ورحمةً لعلّهم بلقاء ربّهم يؤمنون ﴾ كما جاء حرف العطف ثمّ على غير بابه بدرجةٍ أكبر حينما يُستَعْمَل دليلاً على البعد غير المنطقيّ وغير المعقول ولا المقبول بين المقدّمات والنّتائج ، بحيث تبدو النتيجة غير منسجمة مع المقدّمة . ومن البيّن أنّ هذا البعد غير المنطقيّ بين المقدّمة والنّتيجة يتّخذ من المعنى الأساسيّ لحرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ أساسًا ومنطلقًا . ومن الأمثلة على هذا النّوع الآيتان الكريمتان الأوليان من سورة الأنعام . قال تعالى : ﴿ الحمد لله الّذى خلق السّماواتِ والأرضَ وجعل الظّلمات والنّور ، ثمّ الّذين كفروا بربّهم يَعْدلون . هو الّذى خلقكم من طينٍ ثمّ قضى أجلاً وأجلٌ مسمًّى عنده ، ثمّ أنتم تمترون ﴾ والآية الكريمة الرّابعة والسّتّون . قال تعالى : ﴿ قل الله ينجّيكم منها ومنْ كلّ كَرْبٍ ثمّ أنتم تشركون ﴾ وفى الآية الكريمة السّتّين جاء ﴿ ثمّ ﴾ على بابه مرّات ثلاثًا . قال تعالى : ﴿ وهو الّذى يتوفّاكم باللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ثمّ يبعثكم فيه لِيُقْضَى أجلٌ مسمًّى ثمّ إليه مرجعكم ثمّ ينبّئكم بما كنتم تعلمون ﴾ .

٧- جاء فى سورة الأنعام وفى سورة هود القول : ﴿ ربّك ﴾ سبع عشرة مرّةً بأكثر من سائر سور القرآن الكريم . وفى كلّ هذه المواضع فى سورة الأنعام وحدها يتّجه الخطاب إلى المصطفى ﷺ بقصد تثبيت فؤاده ﷺ فى تلك الفترة المكّيّة الحرجة والّتى كان للمشركين فيها الكلمة . وقد جاء فى سورة هود المكّيّة

كذلك فى الآية الكريمة العشرين بعد المائة قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وكلاًّ نقصّ عليك من أنباء الرّسل ما نثبّت به فؤادك . وجاءك فى هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين ﴾ .

٨- جاء فى سورة الأنعام جملة ﴿ قل ﴾ خطابًا للمصطفى ﷺ أربعًا وأربعين مرّة بأكثر من أيّ سورة أخرى من سور القرآن الكريم . وذلك امتدادٌ لتثبيت فؤاد المصطفى ﷺ فى هذه السّورة الكريمة الّتى شيّعها فى نزولها سبعون ألفًا من الملائكة لهم صوت رفيعٌ وعالٍ بالتّسبيح والتّحميد ، والأرض لهم ترتجّ ، ورسول الله ﷺ يقول : سبحان ربّي العظيم ، سبحان ربّي العظيم ، سبحان ربّي العظيم .

٩- فى الآيات الكريمات ٨٣ - ٨٦ تمّ الجمع فى نسقٍ بين أكبر عددٍ من المصطفين الأخيار . قال تعالى : ﴿ وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه . نرفع درجاتٍ من نشاء . إنّ ربّك حكيمٌ عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاًّ هدينا . ونوحًا هدينا مِنْ قبل . ومِنْ ذرّيّته داودَ وسليمانَ وأيّوب ويوسف وموسى وهارون . وكذلك نجزي المحسنين . وزكريّا ويحيي وعيسى وإلياسَ كلٌّ من الصّالحين . وإسماعيل والْيَسَعَ ويونُسَ ولوطًا . وكلاًّ فضّلنا على العالمين ﴾ .

١٠ - هذا الكتاب العزيز الّذى نزل فى اللّغة العربيّة أشرف اللّغات نهض بخصائصها وسما بها إلى أرفع الدّرجات . ومن الظّواهر الّتى تجلّت بوضوح فى سورة الأنعام ظاهرة الإعراب الّتى تتيح للّفظة حرّيّةً كبيرةً فى الحركة مع احتفاظ اللّفظة بموقعها الإعرابّي . ومن الآيات الكريمات الّتى تجلّت فيها هذه الظّاهرة الآية الكريمة السّابعة والثّلاثون بعد المائة . قال تعالى : ﴿ وكذلك زيّن لكثيرٍ من المشركين قَتْلَ أولادهم شركاؤهم لِيُرْدوهم ولِيَلْبِسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ إنّ الفاعل : ﴿ شركاؤهم ﴾ الّذى حقّه التّقديم والمجيء بعد الفعل مباشرةً يتأخّر عن المفعول : ﴿ قَتْلَ ﴾ الّذى حقّه التّأخير . وإنّ الجارّ والمجرور الفضلة الّذى حقّه التّأخير عن المفعول : ﴿ لكثيرٍ من المشركين ﴾ يأتى بعد

الفعل مباشرةً . وإليك هذه الجزئيّة الكريمة فى المعنى ذاته من الآية الكريمة الثّامنة والخمسين بعد المائة . قال تعالى : ﴿ يوم يأتي بعضُ آيات ربّك لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت مِنْ قَبْلُ أو كسبت فى إيمانها خيرًا ﴾ وهل تستطيع لغةٌ غير اللّغة العربيّة أن يأتي فى أثناء حديثٍ طويل مثلُ لفظة جنّاتٍ بمعنى وأخرجنا جنّاتٍ على نحو ما جاء فى هذه الآية الكريمة التّاسعة والتّسعين : ﴿ وهو الّذى أنزل من السّماء ماءً فأخرجنا به نبات كلّ شيء فأخرجنا منه خَضِرًا نُخْرِج منه حبًّا متراكبًا ومن النّخل مِنْ طلعها قِنْوانٌ دانيةٌ وجنّاتٍ من أعنابٍ والزّيتون والرّمّان مشتبهًا وغَيْرَ متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إنّ فى ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون ﴾ .

١١ – سمّيت السّورة الكريمة بالأنعام بسبب حديث السّورة الكريمة عن الأنعام ومجيء لفظ الأنعام فى الآيات الكريمات ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ . علمًا بأنّ لفظ الأنعام جاء ثلاث مرّات فى الآية الكريمة الثّامنة والثّلاثين بعد المائة .

ونتحوّل ، مستعينين بالله تعالى ، إلى الدّراسة المتأمّلة .

الدّراسة المتأمّلة لسورة الأنعام

[١]

« آياتٌ لله تعالى بيّنات وتكذيبٌ بالرّسول والقرآن وعقاب المستهزئين »

الآيات (١ - ١١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ۖ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ
آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾
وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا
يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ
بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

سورة الأنعام واحدةٌ من سورٍ مكيّة خمس تبدأ بالقول : ﴿ الحمد لله ﴾ تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الحمد كلّه لله والثّناء جميعه له جلّ وعلا وحده لا شريك له ، الّذى خلق السّماوات والأرض وجعل الظّلمات والنّور ، وخلقنا من طين ، وحدّد آجالنا ، وحدّد ما بين الموت إلى البعث . وينكر السّياق على المشركين أن يسوّوا الأصنام به جلّ وعلا وأن يشكّوا فى البعث . وإنّ سورة الأنعام ، وهى السّورة المكّيّة الثّانية بعد سورة الفاتحة السّبع المثانى ، يتجلّى فيها خصائص المكّيّ من القرآن بسبب طولها ، فهي تُعْنَى بأسس العقيدة من دعوةٍ إلى توحيد الله تعالى وإفرادٍ له جلّ وعلا بالعبادة وحديثٍ عن أهمّ معالم هذا الكون من سماواتٍ وأرضٍ وليلٍ ونهار ، وحثٍّ على التّدبّر ، وتحذيرٍ من التّكبّر ، وأخذٍ للعبرة من السّابقين المكذّبين أمثالهم ، الّذين أخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر . وإنّ من أهمّ ما يلفت النظر فى هذا القسم وفى السّورة الكريمة استعمال حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ استعمالًا عجيبًا يتّخذ من التّرتيب مع التّراخى الّذى يفيده الحرف أساسًا مطيّةً للتّنبيه إلى عدم انسجام النّتائج الّتى انتهى إليها الكافرون مع المقدّمات وذلك فى القول فى الآية الكريمة الأولى : ﴿ ثمّ الّذين كفروا بربّهم يعدلون ﴾ وفى القول فى الآية الكريمة الثّانية : ﴿ ثمّ أنتم تمترون ﴾ أمّا فى الآية الكريمة الحادية عشرة : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثمّ انظروا كيف كان عاقبة المكّذبين ﴾ فإنّ حرف العطف : ﴿ ثمّ ﴾ ينبّه إلى البون الشّاسع بين ما يترتّب على الأمر المباح وهو السّير فى الأرض والأمر الواجب وهو النّظر والاعتبار . وإذا كنّا نفهم من الآيتين الكريمتين الأوليين القدرة المطلقة للذّات العليّة الّتى خلقت هذا الكون العظيم فإنّ الآية الكريمة الثّالثة تشير إلى علم الله تعالى المحيط : ﴿ وهو الله فى السّماوات وفى الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ ثمّ يتحوّل الحديث إلى أولئك الّذين يشركون مع

الله تعالى سواه والّذين يشكّون فى البعث ويوم الجزاء . وتوجز الآيتان الكريمتان الرّابعة والخامسة أهم مظاهر تعنّت المشركين . إنّه التّكذيب والإعراض والاستهزاء . وفى أسلوب القرآن الكريم المعجز يكون النّصّ على الإعراض مع كلّ آيةٍ من آيات الله تعالى ، ويلى ذلك الحديث عن التكذيب الّذى يأتي عمليًّا بين يدي الإعراض وعن الاستهزاء الّذي يأتي من خلفه . ويكون الإعراضُ عن آيات الله تعالى ، والتّكذيبُ بالحقّ ، بالقرآنِ الكريم والرّسولِ العظيم ، والاستهزاءُ بالحقّ ، الرّسولِ العظيم والقرآنِ الكريم . ويكون الحثُّ لهم فى أسلوب الغائب على أن يروا بأبصارهم أو ببصائرهم الأمم الكثيرة السّابقة الّتى أهلكها الله تعالى والّتى مكّن لها فى الأرض بأكثر ممّا مكن لكفّار مكّة . وهنا يكون الالتفات فى القول : ﴿ مكّناهم فى الأرض ما لم نمكّن لكم ﴾ ومن مظاهر التّمكين للسّابقين أن أرسل الله تعالى السّماء عليهم مدرارًا وجعل الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكهم الله تعالى بذنوبهم وأنشأ من بعدهم أممًا آخرين . ومن مظاهر تكذيب كفّار مكّة لآيات الله تعالى البيّنات ما تقرّره آيةٌ كريمة من أنّ ربّ العزّة لو نزّل على المصطفى ﷺ كتابًا مكتوبًا فى صحيفة تلبيةً لاقتراحهم فلمسوه بأيديهم لقال الكافرون المعرضون ما هذا إلاّ سحرٌ مبين . وإنّما لم ينزل ربّ العزّة الكتاب فى هذه الصّورة الّتى اقترحوا لأنّ القوم وهم فرسان البيان لم تكن تنقصهم الآية أو المعجزة ، لأنّ القرآن الكريم معجزة المصطفى ﷺ البيانيّة الكبرى ، إنّما كان ينقص القوم الرّغبة الصّادقة فى البحث عن الحقّ وعن الحقيقة . وكما لم يتحقّق اقتراحهم بشأن نزول الكتاب مكتوبًا لم يتحقّق اقتراحهم بشأن نزول الملك شاهدًا بصدق المصطفى ﷺ . وبشأن هذا الاقتراح الآخر بيّن السّياق أنّ المَلَكَ لو نزل تلبيةً لطلبهم و لم يؤمنوا لقضي الأمر بإهلاكهم ثمّ لا يُنظَرون لتوبة ولا يُمْهَلون لمَعْذِرة . إنّ عدم تلبية طلب القوم من مظاهر رحمة الله تعالى بهم ، وإنّ من مظاهر رحمة الله تعالى بهم أيضًا أنّ المَلَك لو نزل لكان فى صورة رجلٍ لأنّ طبيعة البشر لا تقوى على رؤية الملك فى صورته

الطّبيعيّة . إنّ الكافرين لبسوا الأمر على أنفسهم وخلطوه حينما هجروا الصّراط المستقيم ودخلوا فى المتاهات . وإنّهم الآن يدخلون فى لبسٍ جديدٍ حينما يرون الملك فى صورة الرّجل فيقولون هذا بشرٌ ونحن نريد ملكًا . قال تعالى ﴿ ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلًا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ ولمّا كان الاستهزاء منتهى ما أفضى إليه تكذيب القوم وإعراضهم فقد كان ثمّة عودةٌ إلى المستهزئين السّابقين الّذين دمّر الله تعالى عليهم كي يأخذ كفّار مكّة ومن شاكلهم العظة والعبرة . ولمّا كان التّكذيب منطلق المعرضين والمستهزئين فقد كان ثمّة عودةٌ إلى المكذّبين وعاقبتهم الوخيمة ، وذلك عن طريق الأمر لكفّار مكّة المكذّبين بأن يسيروا فى الأرض ثمّ ينظروا كيف كان عاقبة أولئك السّابقين المكذّبين .

الآيـــة رقـــم (١)

قال تعالى : ﴿ الحمد لله الّذى خلق السّماوات والأرض وجعل الظّلماتِ والنّورَ ثمّ الّذين كفروا بربّهم يَعْدِلون ﴾ .

تبدأ سورة الأنعام المكّيّة بالقول : ﴿ الحمد لله ﴾ شأنها فى ذلك شأنُ أربع سورٍ مكّيّة أُخَر ، هي الفاتحة والكهف وسبأ وفاطر . ابتدأت سورة الفاتحة بالقول : ﴿ الحمد لله ربّ العالمين ﴾ وابتدأت سورة الكهف بالقول : ﴿ الحمد لله الّذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ﴾ وابتدأت سورة سبأ بالقول : ﴿ الحمد لله الّذى له ما فى السّماوات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ وابتدأت سورة فاطر الّتى تلى مباشرةً سورة سبأ فى التّرتيب القول : ﴿ الحمد لله فاطر السّماواتِ والأرضِ جاعلِ الملائكةِ رُسُلاً أولى أجنحةٍ مَثْنَى وثُلاثَ ورباع . يزيد فى الخلق ما يشاء . إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

والحمد معناه الثّناء والمدح . ويكون باللّسان وحده أو بالقول . ويكون الحمد على الصّفات اللّازمة والصّفات المتعدّية . نقول مثلاً حَمِدته لشجاعته وحمدته لكرمه .

وإنّ تعريف لفظ الحمد معناه استغراق جنس الحمد كلّه[١] فالحمد لله تعالى وحده لا شريك له ، والثّناء كلّه لله تعالى على صفاته اللّازمة والمتعدّية ، والشّكر لله تعالى الّذى خلق السّماوات السّبع والأرَضين السّبع وجعل الظّلمات والنّور .

ويلاحظ أنّ جملة ﴿ خلق ﴾ هي الّتى تجىء فى حقّ السّماوات والأرض بينما تجىء جملة ﴿ جعل ﴾ فى حقّ الظّلمات والنّور . ونستطيع أن نفهم أنّ جملة ﴿ خلق ﴾ بشأن السّماوات والأرض تفيد خلق السّماوات والأرض وإيجادهما من العدم ، وأن جملة ﴿ جعل ﴾ بشأن الظّلمات والنّور تفيد جعل الظّلمات والنّور ، الموجودين أصلاً ، مستَمِرَّيْن دائمين .

ويلاحظ مجىء السّماوات والظّلمات ، متقدّمتين فى الذّكر على الأرض والنّور ، وفى صيغة الجمع ، بينما تجىء الأرض والنّور فى صيغة المفرد . ونستطيع أن نفهم أنّ فى مجىء جملة : ﴿ خلق ﴾ فى حقّ السّماوات والأرض تنبيهًا إلى الحكمة من تقديم السّماوات والأرض على الظّلمات والنّور ، باعتبار السّماوات والأرض بمنزلة الأصل ، واعتبار الظّلمات والنّور بمنزلة التّبع . ونستطيع أن نفهم من مجىء السّماوات فى صيغة الجمع ومجىء الأرض فى صيغة المفرد ضخامة السّماوات بالقياس إلى الأرض . واللّطيف فى الأمر أنّ النّصّ كثيرٌ فى القرآن الكريم على أنّ السّماوات سبعٌ بينما ثمّة إشارةٌ واحدةٌ فى القرآن الكريم إلى أنّ الأرضين سبعٌ وذلك فى قوله تعالى من سورة الطّلاق[٢] : ﴿ الله الّذى خلق سبع سماواتٍ ومن الأرض مِثْلَهُنَّ يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أنّ الله على كلّ شىءٍ قديرٌ وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيءٍ علمًا ﴾ وقد نصّت هذه الآية الكريمة من سورة غافر على أنّ عمليّة خلق السّماواتِ والأرضِ أكبر مِنْ عمليّة خلق النّاس . قال تعالى[٣] : ﴿ لخَلْقُ السّماواتِ والأرضِ أكبر مِنْ خلق النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ .

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن عطيّة ٥/١٢٠ .
(٢) الآية ١٢ .
(٣) سورة غافر ٥٧ .

وإذا كنّا فهمنا من مجيء السّماوات في صيغة الجمع ضخامة السّماوات بالقياس إلى الأرض التّي جاءت في صيغة المفرد فإنّا نستطيع أن نفهم من مجيء الظّلمات في صيغة الجمع أنواعها المختلفة بالقياس إلى النوّر الذّي جاء في صيغة المفرد ، وذلك بسبب تراكب بعض الظّلمات على بعضٍ على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الأربعون من سورة النّور . وقد جاء النّور في صيغة المفرد دليلاً على أنّ طريق النّور والحّق واحدٌ لا مثنويّة فيه ولا تعدّد .

وإذا كنّا فهمنا من تقديم السّماوات في الذّكر على الأرض ضخامة السّماوات بالقياس إلى الأرض فإنّا نستطيع أن نفهم من تقديم الظّلمات في الذّكر على النّور التّنبيه إلى أنّ الظّلمات هي الأصل وأنّ النّور طارئٌ عليها . وما أكثر الأدلّة في القرآن الكريم على هذه الحقيقة . والجمهور من المفسّرين : الظّلمات اللّيل ، والنّور : النّهار[1] .

ومعنى التّذييل : ﴿ ثمّ الّذين كفروا بربّهم يَعْدلون ﴾ ثمّ الّذين كفروا بالله تعالى يسوّون بربّهم جلّ وعلا الأصنام التّي لا تخلق شيئًا ولا تملك ضرًّا ولا نفعًا ولا تملك موتًا ولا حياةً ولا نشورا . يقال من مساواة الشّيء بالشّيء عدلت هذا بهذا إذا ساويته به عَدْلاً . وأمّا في الحكم إذا أنصفت فيه فإنّك تقول : عدلت فيه أعدل عدلًا[2] وعليه يكون القول : ﴿ بربهم يعدلون ﴾ أي يجعلون له عديلاً فصار كقوله: ﴿ هم به مشركون ﴾[3] .

والّذي يلفت النّظر في التّذييل هنا مجيء حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ الّذي يدلّ أساسًا على التّرتيب مع التّراخي . والمراد التّراخي الزّمني . تقول : دخل محمّد ثمّ عليّ ، تريد أنّ دخول عليّ كان بعد محمّد بفاصلٍ زمنيّ ، بينما تقول : دخل محمّد فعليّ إذا

---

(١) تفسير ابن عطيّة ١٢١/٥ وتفسير القرطبيّ ٢٣٨٣ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩٣/٧ وانظر تفسير ابن عطيّة ١٢٣/٥ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عدل » ٣٢٦ .

كان دخول عليّ بعد محمّد على الفور ، وتقول : دخل محمّد وعليّ إذا دخل محمّد وعليّ معا ، أو دخل أيّ منهما قبل الآخر لأنّ الواو تدلّ على مجرّد المصاحبة ولا تدلّ على التّرتيب بالضّرورة والتّعقيب . إنّ حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ في الجزئيّة الكريمة : ﴿ ثمّ الّذين كفروا بربّهم يَعْدلون ﴾ يتّخذ من المعنى الّذى يفيده أساسًا من التّرتيب مع التّراخى مطيّةً للتّنبيه إلى أنّ الذّين كفروا قد أبعدوا النُّجعة و لم يكونوا منطقيّين حينما لم يبنوا النّتيجة الصّحيحة على المقدّمة الصّحيحة ، بل كانوا ظالمين ومغفّلين حينما بنوا على المقدّمة الصّحيحة نتيجةً فاسدة . إنّ المقدّمة الصّحيحة باعتراف القوم أنفسهم تقول بأنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى خلق السّماوات والأرض وجعل الظّلمات والنّور . قال تعالى[1] : ﴿ قل لِمَنِ الأرضُ ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكّرون . قُلْ من ربُّ السّماوات السّبع وربُّ العرش العظيم . سيقولون لله . قل أفلا تتّقون . قل مَن بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو يُجيرُ ولا يُجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله . قل فَأنّى تُسْحَرون ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ ولئن سألتهم من خَلَقَ السّماواتِ والأرضَ وسخّر الشّمس ليقولُنّ الله فَأنّى يُؤفكون ﴾ .

وما هي النّتيجة الصّحيحة الّتى ينبغى على القوم أن يرتّبوها على هذه المقدّمة الصّحيحة باعترافهم ؟ أن يفردوه جلّ وعلا بالعبادة وحده لا شريك له . والعجيب في القوم أنّهم أشركوا مع الله تعالى غيره وساووا في العبادة مع الله تعالى سواه . ولا يكاد العجب ينتهى من القوم الذّين عدلوا بربّهم جلّ وعلا مربيّهم بنعمه وآلائه وساووا به عزّ وجلّ ، وهو وحده القادر على كلّ شيء ، الآلهة العاجزة عن كلّ شيء ، والّتى لا تخلق شيئًا والّتى خلقها الله تعالى ، والّتى لا تملك لنفسها شيئًا فضلاً عن غيرها ، والّتى لا تملك ضرًّا ولا نفعًا ولا تملك موتًا ولا حياةً ولا نشورا . إنّ مجيء حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ هنا يفيد التّوبيخ[3] .

---

(١) سورة المؤمنون ٨٤ ـ ٨٩ . (٢) سورة العنكبوت ٦١ .

(٣) انظر هنا تفسير ابن عطيّة ١٢٢/٥ .

وهكذا يتبيّن الدّور العظيم لحرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ فى الدّلالة على شطط الكافرين وركوبهم كلّ مركبٍ صعب وعدم إفضائهم بالمقدّمات إلى نتائجها . وهذا الدّور العظيم لحرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ يتجلّى فى هذه السّورة الكريمة بأكثر ممّا يتجلّى فى أي سورةٍ أخرى من سور القرآن الكريم فيما يبدو . والله تعالى أعلم[1] إنّه على سبيل المثال يتجلّى فى الآية الكريمة التّالية فى التّذييل : ﴿ ثمّ أنتم تمترون ﴾.

وإنّ من ألطف ما يجمل لفت الانتباه إليه هو أنّ التذييل فى الآية الكريمة الأولى : ﴿ ثمّ الّذين كفروا بربّهم يعدلون ﴾ يتحدّث عن غائبين استمرارًا لحديث الآية الكريمة من قبل فى أسلوب الغائب : ﴿ الحمد لله الّذى خلق السّماوات والأرض وجعل الظّلمات والنّور ﴾ وإنّ هذا الانسجام أو التّناغم الّذى تبيّناه فى كلّ من التّذييل والصّدر نتبيّنه فى الآية الكريمة التّالية أيضًا الّتى تستعمل ضمير المخاطب فى كلٍّ من الصّدر والتّذييل فإلى .

الآيـــة رقـــم (٢)

قال تعالى : ﴿ هو الّذى خلقكم من طينٍ ثمّ قضى أجلاً وأجلٌ مسمًّى عنده ثمّ أنتم تمترون ﴾.

إنّ أوّل ما يلفت الانتباه هو ابتداء الآية الكريمة باسم الضّمير ﴿ هو ﴾ العائد إلى الذّات العليّة وعدم الاستغناء عنه مع إمكان ذلك الاستغناء وبذلك كان اسم الموصول من القول ﴿ هو الّذى خلقكم ﴾ خبرًا للمبتدأ ﴿ هو ﴾ وليس بدلاً من ﴿ الّذى ﴾ فى القول من الآية الكريمة الأولى : ﴿ الحمد لله الّذى خلق السّماوات والأرض ﴾ وإنّ لمجيء اسم الضّمير المنفصل : ﴿ هو ﴾ فى صدر الآية الكريمة فائدةً عظيمة ، فهو من ناحيةٍ يؤكّد انفراد الذّات العليّة بعمليّة الخلق والإيجاد من العدم ،

---

(١) انظر هنا معجم الأدوات والضّمائر فى القرآن الكريم ٢٢٢ ـ ٢٣٠.

وهو من ناحيةٍ أخرى يشعر بأنّ محور الحديث وإن كان عمليّة الخلق والإيجاد من العدم فإنّ ثمّة صورةً أخرى لعمليّة الخلق السّابقة هي امتدادٌ لها ومع ذلك فهي لضخامتها تستحقّ أن يلفت الانتباه إليها ، وهي لعدم استفادة الكافرين منها خليقٌ بالكافرين أن يتعجّب من موقفهم تجاهها وأن يؤنّبوا من أجلها .

وإذا كان المفهوم من حمد الله تعالى في الآية الكريمة الأولى والثّناء عليه لفت الانتباه إلى ضخامة خلق السّماوات والأرضِ وجعل الظّلمات والنّور فإنّ ضخامة خلق الله تعالى الإنسان من طين تستحقّ هي الأخرى أن يُحْمدَ الله تعالى من أجلها . وكما كان في الآية الكريمة السّابقة توبيخٌ للكافرين وتأنيب كان هنا أيضًا توبيخٌ للكافرين وتأنيب ، بسبب عدم الوصول من قِبلَ الكافرين بالمقدّمات إلى نتائجها .

وإذا كنّا فهمنا من اسم الضّمير المنفصل : ﴿ هو ﴾ معاني عميقة ، فإنّ اسم الموصول ﴿ الّذى ﴾ يفيد هو الآخر معاني عميقة وذلك في القول : ﴿ هو الّذى خلقكم ﴾ على الرّغم من إمكان الاستغناء عن اسم الموصول وابتداء الآية الكريمة بجملة : ﴿ خلقكم ﴾ إنّ كلاً من اسم الضمير واسم الموصول قوّةٌ للمعاني السّامية الّتى تهدف إلى التّنبيه والتّأكيد بأنّ الله سبحانه وتعالى هو المستحقّ للعبادة وحده لا شريك له . إنّ الآية تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الّذى خلق النّاس من طين ، فكّل النّاس من ذرّيّة آدم عليه السّلام الّذى خلقه الله تعالى من طينٍ[1] لازب . وخلق منه زوجه حوّاء عليها السّلام . إنّ كلّ النّاس من ذرّيّة آدم وحوّاء عليهما السّلام . ومن الآيات الكريمات الّتى بيّنت هذه الحقيقة الآية الكريمة الأولى من سورة النّساء . قال تعالى : ﴿ يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذى خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً . واتّقوا الله الّذى تساءلون به والأرحام . إنّ الله كان عليكم رقيبا ﴾ وجاء في

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ٩٤/٧ وتفسير ابن كثير ١٢٣/٢ والجلالين وتفسير ابن عطيّة ١٢٤/٥ والبحر المحيط ٧٠/٤ وتفسير القرطبيّ ٢٣٨٤ .

سورة السّجدة[١] قوله تعالى : ﴿ ذلك عالِمُ الغيب والشّهادة العزيزُ الرّحيم . الّذى أحسن كلّ شيءٍ خَلَقَه وبدأ خَلْقَ الإنسان من طين . ثمّ جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهين . ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة . قليلاً ما تشكرون ﴾ .

وانظر إلى حرف العطف : ﴿ ثمّ ﴾ الّذى جاء على بابه من إفادة التّرتيب مع التّراخى الزّمنيّ وذلك فى القول : ﴿ ثمّ قضى أجلاً ﴾ وانظر إلى حرف العطف : ﴿ ثمّ ﴾ الذّى جاء فى التّذييل على غرار التّذييل فى الآية الكريمة السّابقة من إفادة معنى جديد بديع وذلك فى القول : ﴿ ثمّ أنتم تمترون ﴾ إنّ حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ الذّى جاء على بابه يفيد أنّ ربّ العزّة الّذى أخرجنا من بطون أمّهاتنا ونحن لا نعلم شيئًا وجعل لنا السّمع والأبصار والأفئدة بعد أن جعلنا خلقًا سويًّا قضى أجلاً لكلّ إنسان وقدّر وكتب[٢] أجل الإنسان من لدن ولادته إلى موته[٣] وما بين أن يخلق إلى أن يموت[٤] قال سعيد بن جبير عن ابن عبّاس : ثمّ قضى أجلاً ، يعنى الموت[٥] وبهذا يكون المعنى : ﴿ ثمّ قضى أجلاً ﴾ لكم تموتون عند انتهائه[٦] وعليه فالأجل عبارةٌ عن المدّة المضروبة لحياة الإنسان[٧] .

﴿ وأجلٌ مسمًّى عنده ﴾ معناه : وأجلٌ مضروبٌ عنده جلّ وعلا لبعثكم[٨] وذلك ما بين أن يموت إلى أن يبعث[٩] ومن وقت موته إلى حَشْره[١٠] ومعنى قوله : ﴿ عنده ﴾ أى لا يعلمه إلاّ هو كقوله : ﴿ إنّما علمها عند ربّي لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو ﴾ وكقوله : ﴿ يسألونك عن السّاعة أيّان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى ربّك منتهاها ﴾[١١] .

---

(١) الآيات ٦ ـ ٩ .
(٢) تفسير ابن عطيّة ٥/١٢٥ .
(٣) تفسير ابن عطيّة ٥/١٢٤ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٧/٩٤ وتفسير ابن كثير ٢/١٢٣ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/١٢٣ والكشّاف ١/٤٩٥ وتفسير القرطبيّ ٦/٢٣٨٦ .
(٦) الجلالين .
(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « أجل » ١١ .
(٨) الجلالين .
(٩) تفسير الطّبريّ ٧/٩٤ وتفسير ابن كثير ٢/١٢٣ .
(١٠) تفسير ابن عطيّة ٥/١٢٤ وجاء فى تفسير القرطبيّ ٦/٢٣٨٦ تفسير الأجل بأجل القيامة .
(١١) تفسير ابن كثير ٢/١٢٣ .

وبعد أن بيّنت الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك لـه الّـذى خلقنا من طين وصوّرنا فأحسن صورنا ثمّ قضى آجالنا وحدّد أعمارنا وأنّه جلّ وعلا استأثر فى علم الغيب عنده وقت البعث ويوم القيامة جاء التّذييل مستعملاً حرف العطف : ﴿ ثم ﴾ على غرار الاستعمال فى التّذييل السّابق ممّا يُفْهَم منه التّعجب من القوم وتوبيخهم وتأنيبهم : ﴿ ثمّ أنتم تمترون ﴾ والمعنى أنكّم بعد كلّ هذه الأدلّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة الّتى أوجدتكم من العدم تمترون فى البعث بعد الموت وتشكّون فى الحساب يوم القيامة ، الثّواب أو العقاب . والمِرْية فى كلام العرب هي الشّكّ[1] وقيل : المرية التّردّد فى الأمر ، وهو أخصّ من الشّكّ . وأصله من مَرَيْتُ النّاقة إذا مَسَحْتَ ضَرْعها للحلب[2] وكأنّ القوم مذبذبون بين التّصديق بيوم القيامة وبين التّكذيب ، بين التّصديق بسبب قوّة الأدلّة وبين التّكذيب بسبب قوّة التواء النّفوس . وكأنّ اعوجاج فطر القوم هو الغالب لهذا هم غلّبوا جانب الشّكّ على اليقين فاستحقّوا التّوبيخ العنيف .

وإذا كان لضمير الغائب حظّه الموفور فى الآية الكريمة السّابقة بما فى ذلك التّذييل ، فإنّ لضمير المخاطب حظّه الموفور فى هذه الآية الكريمة بما فى ذلك التّذييل . والمعروف أنّ الضّمائر تتّجه إلى الأقوى من الغائب إلى المخاطب إلى المتكلّم . وكأنّ القوم الّذين كان الحديث عنهم وكان تأنيبهم مستعملاً ضمير الغائب حينما لم ينفع معهم التّلميح كان بعد ذلك التّحوّل معهم إلى الحديث المباشر الصريح . هذا إلى المزيد من الأدلّة والتّوضيح .

وبعد أن تحدّثت الآية الكريمة الأولى عن العالم الأكبر ، أعنى السّماوات والأرض وما تعلّق بهما من ظلماتٍ ونور ، وبعد أن تحدّثت الآية الكريمة الثّانية عن العالم الأصغر ، أعنى الإنسان الذّى خلقه ربّه جلّ وعلا فسوّاه وعدله وفى الصّورة الّتى

---

(١) تفسير الطّبريّ ٧/٩٥ وتفسير ابن عطيّة ٥/١٢٥ .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « مرى » ٤٦٧ وتفسير القرطبيّ ٦/٢٣٨٦ .

أراده أن يظهر فيها ركّبه ، تحدّثت الآية الكريمة الثّالثة عن ربّ العزّة الّذى هو فى السّماء إلهٌ وفى الأرض إله فإلى .

الآيــة رقـــم (٣)

قال تعالى : ﴿ وهو الله فى السّماوات وفى الأرض يعلم سِرّكم وجَهْرَكُمْ ويعلم ما تكسبون ﴾ .

والّذى يلفت الانتباه فى الآية الكريمة اشتمالها على لفظتيّ السّماوات والأرض اللّتين جاءتا فى الآية الكريمة الأولى ، وهذا نوعٌ من الرّباط بين الآيتين الكريمتين وهو رباطٌ يعمّق مفهوم الآية الكريمة الأولى الّتى أنكرت على الّذين كفروا أن يسّووا به جلّ وعلا غيره فى اتّخاذه إلهًا . إنّ هذا المغزى العميق هو الّذى يفهم من القول : ﴿ وهو الله فى السّماوات وفى الأرض ﴾ والمعنى : وهو الله المعبود فى السّماوات وفى الأرض[1] وممّا يعمّق هذه النّظرة ويؤكّدها أنّ هذه الآية الكريمة الّتى يجىء فيها ذكر السماوات والأرض على غرار الآية الكريمة الأولى يجىء فيها القول : ﴿ يعلم سرّكم وجهركم ﴾ وكأنّ السّرّ امتدادٌ للظّلمات الّتى جاءت فى الآية الكريمة الأولى متقدّمة ، وكأنّ الجهر امتدادٌ للنّور الّذى جاء ذكره فى الآية الكريمة الأولى متأخّرا . قال السّدّيّ وقتادة والجمهور من المفسّرين : الظّلمات : اللّيل ، والنّور النّهار[2] وقد جاء فى سورة الرّعد[3] قوله تعالى : ﴿ سواءٌ منكم من أَسَرَّ القول ومن جهر به ومن هو مُسْتَخْفٍ باللّيل وسارِبٌ بالنّهار ﴾ وجاء فى سورة الأنعام[4] قوله تعالى : ﴿ وهو الّذى يتوفّاكم باللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ثمّ يبعثكم فيه ليُقْضَى أجلٌ مسمًّى ثمّ إليه مرجعكم ثمّ ينبّئكم بما كنتم تعلمون ﴾ .

---

(١) تفسير ابن عطيّة ١٢٦/٥ وتفسير القرطبيّ ٢٣٨٧ .
(٢) تفسير ابن عطيّة ١٢١/٥ .
(٣) الآية ١٠ .
(٤) الآية ٦٠ .

ويلاحظ التّدرّج من السّرّ إلى الجهر إلى الكسب من خير أو شرّ : ﴿ يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ ولّما كانّ السّرّ غير الجهر وكانت الأشياء تتبيّن بأضدادها جاء الجهر معطوفًا على السّرّ تسبقهما جملة يعلم بينما جاءت جملة ﴿ يعلم ﴾ مع جملة ﴿ يكسبون ﴾ لأنّ الكسب هنا ينصرف إلى العمل بعد انصراف السّرّ والجهر إلى القول ، ووراء ذلك فإنّا إذا كنّا مع السّرّ والجهر بصدد معنيين منطوقين فإنّا مع الكسب بصدد معنيين كذلك ولكنّهما مفهومان . أمّا هذان المعنيان المفهومان فهما الخير والشّرّ . إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم سرّ القول وجهره ، وخير القول والعمل وشرّهما فمجازٍ على كلٍّ منهما . ولّما كان كلٌّ من القول والفعل لهما الباعث عليهما من النّيّة الحسنة أو السّيّئة ، ولا يخفى على الله تعالى شيء أخفى من السّرّ ، وهو ما توسوس به نفس المرء ، فذلك معناه أنّ القول : ﴿ يعلم سرّكم وجهركم ﴾ يشمل ما هو أخفى من السّرّ ، وقد جاء فى سورة طه[1] قوله تعالى : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السّرّ وأخفى ﴾ وقد عرفنا أنّ الأخفى من السّرّ هو ما توسوس به نفس الإنسان . قال تعالى[2] : ﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ إنّ الّذى توسوس به نفس الإنسان ممّا هو أبعد من السّرّ ويسبقه ضمنًا فى القول : ﴿ يعلم سرّكم وجهركم ﴾ وسكتت عنه الآية الكريمة بين يدى السّرّ ، يقابل ما سكتت عنه الآية الكريمة فى آخرها من خيرٍ أو شرّ يكسبهما الإنسان . وكأنّ ما سُكِتَ عنه أوّلاً قابله ما سُكِتَ عنه آخرًا ، وكلٌّ منهما مفهومٌ ضمنا .

وإذا كانت الآية الكريمة الأولى تنكر على الّذين كفروا إشراكهم مع الله تعالى سواه ، وكانت الآية الكريمة الثّانية تنكر عليهم أن يشكّوا فى البعث والحساب ، فإنّ هذه الآية الكريمة الّتى تشير إلى علم الله تعالى المحيط تنبّه ضمنًا إلى البعث فالحساب ، الثّواب أو العقاب . وهكذا يتبيّن حظّ العلم الموفور فى الآية الكريمة

---

(١) الآية ٧ . (٢) سورة ق ١٦ .

بالقياس إلى القدرة لأنّ العلم منطوق به والقدرة مفهومة ، كما يتبيّن حظّ القدرة الموفور فى الآيتين الكريمتين الأوليين . وهكذا يتبيّن أننّا نتقلّب فى نعيمى قدرة الله تعالى المطلقة وعلمه المحيط جلّ وعلا . وإنّ الآية الكريمة التّالية تقوّى هذا المعنى فإلى:

الآيــة رقــم (٤)

قال تعالى : ﴿ وما تأتيهم من آيةٍ من آيات ربّهم إلاّ كانوا عنها معرضين ﴾ .

ما أكثر الآيات البيّنات والحجج الباهرات الّتى تأتى كفّار مكّة وتصل إليهم . وفى مقدّمة الآيات الّتى تصلهم آيات القرآن الكريم البيّنات . إنّ موقف كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم من هذه الآيات الواضحات هو الإعراض الدّائم والصّدود المستمرّ . وانظر إلى جملة تأتيهم التّى تفيد أنّ هذه الآيات الواضحات التّى تأتى كفّار مكّة إنّما تأتيهم من مكانها البعيد ومكانتها السّامية ، إذ المعروف أنّ جملة « أتى » لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ . وإنّ هذه الآيات البيّنات إنما أتت بعلم الله تعالى وبقدرته جلّ وعلا . وها هي ذى الآيات الرّفيعة السّناء قد جاءت كفّار مكّة ووصلت إليهم بإرادة الله تعالى وحده لا شريك له . إنّ هذه الآيات البيّنات لا تأتى بإرادة أيّ مخلوق بل لا تُقْتَرَح مِنْ قِبَل أيّ مخلوق إنّما تأتى هي وسواها بإرادة الله تعالى وحده لا شريك له .

إنّ ﴿ مِنْ ﴾ الأولى لاستغراق الجنس و﴿ مِنْ ﴾ الثّانية للتّبعيض[1] فكلّ الآيات الّتى تصل الكافرين يعرضون عنها ، وليست الآيات الّتى تأتيهم سوى بعض آيات الله تعالى الفعّال لما يريد القادر على كلّ شيء . وانظر إلى لفظ الرّبّ فى القول : ﴿ من آيات ربّهم ﴾ الّذى ينبّه إلى تربية الرّبّ جلّ وعلا عباده بنعمه وآلائه . والمعروف أنّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى القرآن الكريم فى مواقف الخصوص وفى مواطن التّنبيه إلى وجوب القيام بالشّكر لله تعالى الّذى ربّى عباده بنعمه وآلائه .

---

(١) انظر تفسير ابن عطيّة ١٢٨/٥ وتفسير القرطبيّ ٢٣٨٧ والبحر المحيط ٧٣/٤ والكشّاف ٤٩٥/١ .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تقرّر إصرار الكافرين على كفرهم والمشركين على شركهم رغم آيات الله تعالى البيّنات الدّالة على علمه جلّ وعلا وقدرته والتّى يُنْعِم بها جلّ وعلا على عباده بواسطة رسوله المجتبى محمّد بن عبد الله ﷺ .

وبما أنّ الّذين كفروا مصرّون على إعراضهم عن آيات الله تعالى البيّنات كلّها فقد لزم تهديدهم وإنذارهم وكان ذلك فى الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــة رقــم (٥)

قال تعالى : ﴿ فقد كذّبوا بالحقّ لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

أشارت الآية الكريمة السّابقة إلى إصرار المشركين على الإعراض عن كلّ آي الذّكر الحكيم . وإنّ هذه الآية الكريمة التّالية تواصل الحديث فى الموضوع وتكمل أبعاده من بين يدي الإعراض ومن خلفه وتبيّن عقاب هؤلاء المجرمين . أمّا ما بين يدي الإعراض فإنّه التّكذيب بالحقّ لما جاءهم . وأمّا ما خلف الإعراض فإنّه ما أفضى إليه التّكذيب بالحقّ وهو الاستهزاء فاستحقّوا التّهديد بالعذاب البعيد والأخذ الأكيد[1] وبناءً على ذلك يكون قد وقع من الكافرين التّكذيب ابتداءً ، ثمّ الإعراض عن آيات الله تعالى والإصرار على الإعراض عدد مرّات نزول الآيات ، ثم الاستهزاء انتهاءً .

فما هو الحقّ الّذى كذّب به الكافرون ابتداءً والّذى أشار إليه قوله تعالى : ﴿ فقد كذّبوا بالحقّ لّما جاءهم ﴾ ؟ وما الّذى استهزأ به الكافرون انتهاءً والّذى أشار إليه قوله تعالى : ﴿ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ ؟ من المعروف أنّ الكافرين كذّبوا الرّسول ﷺ والقرآن الكريم ، واستهزءوا بالرّسول

---

(١) انظر هنا البحر المحيط ٤/٧٤ .

ﷺ وبالقرآن الكريم ولهذا ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المراد بالحقّ محمّد بن عبد الله ﷺ[١] وذهب بعضهم إلى أنّ المراد بالحقّ القرآن الكريم[٢] ومنهم ذهب إلى أنّ الحقّ الّذى كذّبوه القرآن أو الإسلام أو محمّد[٣] .

ونحن حينما نتبيّن أنّ تكذيب الكافرين لآي الذّكر الحكيم الّذى أشارت إليه الآية الكريمة السّابقة يمثّل المرحلة الوسطى من المراحل الثّلاث فلا مانع بناءً على ذلك من أن نذهب إلى أنّ الحقّ الّذى كذّبه المشركون هو محمّد بن عبد الله ﷺ ، وقد استتبع تكذيبهم له عليه الصّلاة والسّلام تكذيبهم للقرآن الكريم وإعراضهم المستمرّ عن آيات الله تعالى ، وقد استتبع هذا وذاك استهزاؤهم بالمصطفى ﷺ ابتداءً واستهزاؤهم بالقرآن الكريم انتهاءً . جاء فى سورة الحِجرْ خطابًا للمصطفى ﷺ وهو فى مكّة قبل الهجرة قول الحقّ جلّ وعلا[٤] : ﴿ إنّا كفيناك المستهزئين . الّذين يجعلون مع الله إلـهًا آخر فسوف يعلمون ﴾ وقد أهلك الله تعالى كلاًّ منهم بآفة وهم الوليد بن المغيرة والعاصى بن وائل وعديّ بن قيس والأسود بن المطّلب والأسود بن عبد يغوث[٥] وجاء خطابًا للمؤمنين قوله تعالى فى سورة النسّاء[٦] : ﴿ وقد نَزّل عليكم فى الكتاب أَنْ إذا سمعتم آيات الله يُكْفَرُ بها ويُسْتَهْزَأُ بها فلا تقعدوا معهم حتّى يخوضوا فى حديثٍ غيره ، إنّكم إذاً مِثْلُهُمْ ، إنّ الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنّم جميعا ﴾ وإنّ وجه الشّبه فى المعنى كبيرٌ بين هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها وبين هذه الآيات الكريمات من سورة الأنعام الكريمة ذاتها . قال تعالى[٧] : ﴿ وكذّب به قومك وهو الحقّ ، قل لست عليكم بوكيل . لكلّ نبأٍ مستقرّ وسوف تعلمون . وإذا رأيت الّذين يخوضون فى آياتنا فأعْرِضْ عنهم حتّى

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ٩٥/٧ وتفسير ابن عطيّة ١٢٨/٥ .
(٢) انظر مثلاً تفسير القرطبيّ ٢٣٨٨ والكشّاف ٤٩٥/١ والجلالين .
(٣) انظر مثلاً البحر المحيط ٧٤/٤ وهو يرى الإعراض أوّلا الاستهزاء آخرا .
(٤) سورة الحِجْر ٩٥، ٩٦ وجاء فى الآية العاشرة من سورة الأنعام النّص على الاستهزاء بالرّسل.
(٥) الجلالين وانظر - مثلاً - فى المستهزئين ، نور اليقين ، الصّفحات ٤٦ - ٥٣ للشّيخ الخضريّ.
(٦) الآية ١٤٠ . (٧) سورة الأنعام ٦٦ - ٦٩ .

يخوضوا فى حديثٍ غيرِه . وإمّا يُنسِينّك الشّيطان فلا تقعد بعد الذِكرى مع القوم الظّالمين . وما على الّذين يتّقون من حسابهم من شيءٍ ولكن ذكرى لعلّهم يتّقون ﴾ وأعنى بوجه الشّبه فى المعنى القول : ﴿ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ والقول : ﴿ لكلّ نبأٍ مستقرّ وسوف تعلمون ﴾ .

ومعنى القول : ﴿ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ فسوف يأتى أولئك المكذّبين المعرضين المستهزئين ويصلهم أخبار ما كانوا به يستهزئون ومضمن أنباء القرآن الّذى كانوا به يستهزئون[1] ومعنى القول : ﴿ لكلّ نبأٍ مستقرّ ﴾ قال ابن عبّاس وغير واحد : أي لكلّ نبأٍ حقيقة ، أي لكلّ خبرٍ وقوع ولو بعد حينٍ كما قال : ولتعلمنّ نبأه بعد حين . وقال : لكلّ أجلٍ كتاب[2] وإنّ من ألطف ما نودّ التّنبيه عليه هو أنّ الآية الكريمة من الآيات الكريمات الكُثْر فى القرآن الكريم التّى تبيّن مظهرًا من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز فى دقّة استعماله لألفاظٍ معيّنة للدّرجة التّى تكون منها تلك الدّقة قاعدةً تشمل القرآن الكريم كلّه . أمّا هذه الدّقة التّى ظهرت فى صورة الظّاهرة أو القاعدة فهي المتعلّقة باستعمال القرآن الكريم جملة ﴿ جاء ﴾ فى القرب الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ ، وباستعمال جملة ﴿ أتى ﴾ فى البعد الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ . وإنّ الأدلّة على هذه القاعدة تتجلّى بصورةٍ أوضح فى الآيات الكريمات التّى تجمع بين هاتين الجملتين معًا فى نسق . إنّ جملة ﴿ جاء ﴾ هنا جاءت مع الحقّ الّذى جاء المكذّبين ووصلهم فعلاً . وإنّ جملة : ﴿ أتى ﴾ هنا أتت مع ما سوف يأتى المستهزئين مستقبلاً .

وإنّ ممّا يتناغم مع هذا التّوزيع الزّمانيّ للجملتين هنا مجىء « سوف » وهو الحرف المبنىّ على الفتح الّذى يخصّص أفعال المضارعة للاستقبال فيردّ الفعل من الزّمان الضيّق وهو الحال ، إلى الزّمان الواسع وهو الاستقبال[3] وإنّ ممّا يتناغم

---

(١) انظر تفسير ابن عطيّة ١٢٨/٥ والبحر المحيط ٧٥/٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٤٣/٢ وانظر تفسير الطّبريّ ١٤٧/٧ . (٣) المعجم الوسيط «سوف» .

كذلك مع كلٌ من الجملتين مجيء القول : ﴿ جاءهم ﴾ الّذى يدلّ على القرب مع التّكذيب الّذى جاء أوّلاً وإتيان القول : ﴿ يأتيهم ﴾ ، الّذى يدلّ على البعد مع الاستهزاء الّذى أتى آخراً .

وإذا كان النّبأ فى صيغة المفرد يعنى الخبر المفيد المهمّ فإنّ الّذى سوف يأتى المستهزئين أنباء ما كانوا به يستهزئون وليس نبأً واحدا . ومن الأنباء ما يتحقّق فى هذه الحياة الأولى كغزوة بدرٍ الّتى أذلّ الله سبحانه وتعالى فيها معا طمس المشركين على أيدي المؤمنين القلّة والأذلّة ، وفى الحياة الأخرى ﴿ يوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظّالمين معذرَتُهُمْ ولهم اللّعنة ولهم سوء الدّار ﴾[1] وإذا كان فى الآية الكريمة تهديدٌ يتعلّق بالمستقبل فإنّ فى الآية الكريمة التّالية استئناسًا بالماضى واستشهادًا بالأمم السّابقة الأقوى من كفّار مكّة والّذين دمّرهم الله تعالى تدميرًا فإلى .

الآيــة رقـــم (٦)

قال تعالى : ﴿ ألم يَرَوْا كم أهلكنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مكّنّاهم فى الأرض ما لم نمكّن لكم وأرسلنا السّماء عليهم مدرارًا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنًا آخرين ﴾ .

تسأل الآية الكريمة المكذّبين المستهزئين من أهل مكّة ومن لفّ لفهم من المشركين فى أسلوب الإنكار : ألم يروا بأعينهم الّتى فى رءوسهم ، فى أثناء أسفارهم فى رحلتي الشّتاء إلى اليمن والصّيف إلى الشّام مثلاً ، وقد تكون الرّؤية هنا قلبيّة[2] ألم يروا كم أهلك الله سبحانه وتعالى من قرن ، ألم يبصروا كثرة الأمم الماضية الّتى أهلكها الله تعالى بسبب كفرها وتكذيبها وإعراضها وذنوبها .

---

(١) سورة غافر ٥١ ، ٥٢ .

(٤) تفسير ابن عطية ١٢٩/٥ .

إنّ الله سبحانه وتعالى قد مكّن لأولئك الكافرين فى الأرض بأكثر ممّا مكّن لكفّار مكّة مثلاً . وانظر إلى أسلوب الالتفات فى أثناء الحديث عن التّمكين فى الأرض والتّحوّل من ضمير الغائبين إلى ضمير المخاطبين : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرنٍ مكّنّاهم فى الأرض ما لم نمكّن لكم ﴾ إنّ الحديث ابتدأ باستعمال ضمير الغائب العائد على المكّيّين ثمّ تحوّل إلى استعمال ضمير المخاطبين ، وكأنّ المشركين قد بلغت بهم الوقاحة والقباحة إلى الحدّ الّذى استحقّوا معه أن يُحْضروا وأن يوبّخوا وجهًا لوجه وأن يُنَبّهوا فى أسلوب الخطاب إلى حقيقة أقدارهم . وانظر إلى التّنويع فى القول : ﴿ مكّنّاهم ﴾ و : ﴿ ما لم نمكّن لكم ﴾ قال أبو عبيدة : مكّنّاهم ومكّنّا لهم لغتان فصيحتان كنصحته ونصحت له[1] ولمّا كان تمكين السّابقين فى القول : ﴿ مكّنّاهم ﴾ أمكن من اللّاحقين ، فكأنّ تعدّي الفعل إلى المفعول مباشرة قوةٌ فى الدّلالة على زيادة التّمكين فى حقّ السّابقين الأكثر قوةً وعددًا وولدا.

ومن مظاهر تمكين الله تعالى السّابقين أن أرسل الله تعالى السّماء عليهم مدرارًا فكانت الأمطار غزيرةً دائمة[2] والمعروف أنّ أهل مكّة يسكنون بوادٍ غير ذى زرع . وبالإضافة إلى الأمطار الغزيرة المستمرّ انهمارها من السّماء جعل الله سبحانه وتعالى أراضي السّابقين صالحةً لأن تتدفّق فيها الأنهار وتجرى من تحت بساتينهم وبيوتهم . وكي تتّضح هذه النعمة العظمى لنتخيّل جبالاً وعرة أو أراضي شديدة الانحدار غير قابلة لأن تسير فيها الأنهار وغير صالحةٍ للملاحة ، ولنقارن بين هذه الأنواع من الجبال والأراضى وبين الأراضي الأخرى الصّالحة لأن تجرى فيها الأنهار بكلّ ما ينفع النّاس من ماء ومنافع . إنّ هذا النّوع الآخر من الأرض هو الّذى امتنّ الله تعالى به على أولئك الطّغاة السّابقين . والمعروف أنّه ليس فى بلاد العرب نهرٌ واحدٌ يجرى .

---

(١) البحر المحيط ٧٦/٤ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩٦/٧ .

لقد قابل السّابقون الإنعام بالجحود والكفران ، وقاموا بما قام به كفّار مكّة فكذّبوا رسل الله تعالى إليهم وأعرضوا عن آيات الله تعالى واستهزءوا بالنّذر وارتكبوا كبائر الذّنوب فأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدرٍ وأهلكهم وأنشأ من بعدهم قرونًا آخرين . ويلاحظ أنّ التّعبير يجيء في القول : ﴿ قرنًا آخرين ﴾ فقد جمع ﴿ آخرين ﴾ حملاً على معنى القرن[1] وليس على اللّفظ المفرد لأنّ القرن بمعنى الأمّة المقترنة في مدّة من الزّمان[2] وكان الحمل على المعنى أفصح لأنّها فاصلة رأس آية[3] وجمع القرن قرون[4] إنّ مصير كفّار مكّة سيكون كمصير المكذّبين السّابقين إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا . ولمّا كان كفّار مكّة مكذّبين ومصرّين على التّكذيب والإعراض فقد بيّنت الآية التّالية المدى البعيد للتّكذيب وللعناد الّذي ليس عليه من مزيد فإلى .

الآيــة رقــم (٧)

قال تعالى : ﴿ ولو نزّلنا عليك كتابًا في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم لقال الّذين كفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين ﴾ .

تبيّن الآية الكريمة المدى البعيد لعناد كفّار مكّة وتعنّتهم فتقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى لو نزّل على حبيبه المصطفى ﷺ كتابًا مكتوبًا[5] في قرطاسٍ ، أي في صحيفة[6] وورقٍ[7] ورَقٍ[8] يُكْتب فيه شِبه الكاغد[9] تلبيةً لاقتراحهم ، ولو أنّهم لمسوا هذا الكتاب بأيديهم ، والمعروف أنّ اليد تتقدّم في اللّمس سائر الأعضاء ، لأصرّوا على كفرهم وقالوا ما هذا الّذي نلمسه بأيدينا إلاّ سحرٌ مبينٌ واضح .

---

(١) تفسير ابن عطيّة ١٣١/٥ .
(٢) تفسير ابن عطيّة ١٢٩/٥ ومفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « قرن » ٤٠١ .
(٣) البحر المحيط ٧٧/٤ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « قرن » ٤٠١
(٥) الكشّاف ٤٩٦/١ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٩٧/٧ .
(٧) الكشّاف ٤٩٦/١ .
(٨) الجلالين .
(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « رق » ٢٠٠ .

ويلاحظ أنّ القول : ﴿ لقال الّذين كفروا ﴾ فيه عدولٌ عن اسم الضّمير إلى الاسم الظّاهر . وبالإضافة إلى قدرة ذكر الاسم الظّاهر على شدّ الانتباه ، لأنّ فيه عدولاً إلى الاسم الظّاهر الأقوى من الضّمير فإنّ فى النّصّ على الكفر إضافةً معنويّة تبيّن إصرار القوم على صفة الكفر الّتى أصبحت سمةً لهم وعلامةً راسخةً فيهم ، رغم كلّ الآيات البيّنات . وقد أشارت الآيات الكريمات التّاليات من سورة الإسراء[1] إلى بعض مظاهر تعنّت كفّار مكّة . قال تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتّى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنْبوعا . أو تكونَ لك جَنّةٌ من نخيلٍ وعِنَبٍ فتفجّر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تُسْقِط السّماء كما زَعَمْتَ علينا كِسَفًا أو تأتي بالله والملائكةِ قبيلا . أو يكونَ لك بيتٌ من زخرفٍ أو ترقى فى السّماء ولن نؤمن لنرقيّك حتّى تنزّل علينا كتابًا نقرؤه . قل سبحان ربّي هل كنتُ إلاّ بشرًا رسولا ﴾ كما أشارت إلى بعض مظاهر التّعنّت الآيات الكريمات من سورة الفرقان[2] قال تعالى : ﴿ وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُمْلَى عليه بُكْرةً وأصيلا . قل أنزله الذّى يعلم السّرّ فى السّماوات والأرض إنّه كان غفورًا رحيما . وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أُنْزِل إليه مَلَك معه نذيرا . أو يُلْقى إليه كنزٌ أو تكونُ له جَنّةٌ يأكل منها . وقال الظّالمون إن تتّبعون إلا رجلاً مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ .

وإذا كانت الآية الكريمة تتحدّث عن الكتاب المقترح نزوله مكتوبًا وليس وحيًا غير مكتوب وعن تعنّتهم وإصرارهم على الكفر ، والمعروف أنّ هذا الاقتراح لم يتحقّق ، وكأنّ « لو » وهو حرف الامتناع للامتناع الّذى صدّرت به الآية الكريمة ينبّه إلى عدم الاستجابة إلى الطّلب ، فإنّ الآيتين الكريمتين التّاليتين تتحدّثان عن مظهرٍ آخر من مظاهر التّعنّت وتصرّح أولاهما بعدم الاستجابة إلى أي اقتراحٍ للكافرين وهاتان هما .

---

(١) الآيات ٩٠ - ٩٣ . (٢) الآيات ٥ - ٩ .

الآيتـــان رقـــم (٨ ، ٩)

قال تعالى : ﴿ وقالوا لولا أُنْزِل عليه مَلَك . ولو أنزلنا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمْرُ ثـمّ لا يُنْظَرون . ولو جعلناه مَلَكًا لجعلناه رجُلا وللَبَسْنا عليهم ما يَلْبسون ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ كفّار مكّة قالوا ، مستمرّين فـى تعنّتهم وعنادهم : هلاّ أُنزِل على محمّد مَلَكٌ يشهد أنّه رسول ربّ العالمين . وحينما نعلم أنّ كفّار مكّة هم فرسان البيان ولهذا كانت معجزة المصطفى ﷺ بيانيّة فهل هم وراء هذه الآية البيّنة بحاجةٍ إلى أي آيةٍ أخرى ؟ إنهّم ليسوا بحاجةٍ إلى آيةٍ أخرى لأنّها تقلّ فى حقّهم عن الآية البيانيّة فى مجال الإقناع . وهذا دليلٌ على أنّ القوم متعنّتون وليسوا جادّين فى الطّلب . وقد سبق علمه جلّ وعلا أنّ القوم لو تحقّق ما اقترحوا من آياتٍ ومعجزاتٍ فإنهّم لن يؤمنوا وذلك معناه هلاكهم واستئصال شأفتهم . لقد جرت سنّة الله تعالى بشأن الأمم السّابقة أنّها إذا تحقّق لها ما اقترحت على أنبيائها من آيات و لم تؤمن أن يأخذها الله تعالى على الفور أخذ عزيزٍ مقتدرٍ ولن تُنْظَرَ لتوبة ولن تُمْهلَ لمعذِرةٍ ، باستثناء قوم يونس عليه السّلام فإنّهم لّما آمنوا كشف الله تعالى عنهم العذاب . وإنّ الآية الكريمة لتحذّر كفّار مكّة من هذا المصير الأليم والعاقبة الوخيمة . وإلى تلك المعانى الّتى أومأنا إليها أشار مثل قوله تعالى[1] : ﴿ إنّ الّذين حقّت عليهم كلمة ربّك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كلّ آيةٍ حتّى يروا العذاب الأليم . فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونُسَ لّما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخِزْي فى الحياة الدّنيا ومتّعناهم إلى حين ﴾ كما أشار إلى مثل هذه المعاني وإلى كون القرآن الكريم هو الآية الكبرى فى حقّ المكّيّين ومن شاكلهم قوله عزّ من قائل فى سورة الحِجْر[2] : ﴿ وقالوا يا أيّها الّذى نُزِّل عليه الذّكر إنّك لمجنون . لوما

---

(١) سورة يونس ٩٦ - ٩٨ .

(٢) الآيات ٦ - ٩ .

تأتينا بالملائكة إن كنت من الصّادقين . ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ وما كانوا إذاً مُنْظَرين . إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّه له لحافظون ﴾ .

ومعنى القول : ﴿ ولو أنزلنا ملكًا لقضي الأمر ثمّ لا يُنْظَرون ﴾ ولو أنزلنا ملكًا من السّماء شاهدًا بأنّ محمّدًا ﷺ رسول ربّ العالمين استجابةً لاقتراح كفّار مكّة ثمّ لم يؤمنوا لَقُضِي الأمر بهلاكهم وبانسحاب سنّة الله تعالى عليهم ، أسوةً بالمكذّبين السّابقين الّذين أصرّوا على التّكذيب بعد مجيء الآيات الّتى اقترحوا فأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر . إنّ كفّار مكّة ، لو تحقّقت الآية أو الآيات الّتى اقترحوا ، ومنها نزول الملك شاهدًا على صدق النّبيّ ﷺ ، ثمّ لم يؤمنوا لَقُضِي الأمر بهلاكهم ولتحقّق الأمر على الفور ثمّ لا يُنْظَرون لتوبة ولا يمهلون لمَعْذِرة . وإذا كان حرف العطف : ﴿ ثمّ ﴾ يدلّ على التّرتيب مع التّراخى فإنّه فى القول : ﴿ ثمّ لا يُنْظَرون ﴾ مهيّئٌ لمجيء جملة ﴿ يُنْظَرون ﴾ فإنّ كلاًّ من حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ والجملة الفعليّة : ﴿ يُنْظَرون ﴾ مرتبطٌ هنا بالزّمن المستقبل . إنّ الإنظار أو الإمهال منفيّان فى ذلك اليوم المهيب المجموع له النّاس المشهود .

وإذا كانت هذه الآية الكريمة الّتى تذكر اقتراح المشركين بنزول ملكٍ يشهد بأنّ محمّدًا ﷺ رسول ربّ العالمين تقرّر أنّ الملك لو أُنْزل افتراضًا وجدلاً فإنّ ذلك يعنى استئصال شأفة كفّار مكّة لأنّهم متعنّتون وليسوا باحثين عن الحقّ والحقيقة فإنّ الآية الكريمة التّالية تقرّر أنّ موقف الكفّار المتّعنّتين لن يتغيّر حينما ينزل الملك فى صورة رجل رحمةً من الله تعالى بهم لأنّ البشر لا تطيق رؤية الملك على حقيقته وبالتّالى هم سيتذرّعون بالادّعاء أنّ الّذى يرونه بشرٌ وليس ملكا . قال تعالى : ﴿ ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلًا وللَبَسْنا عليهم ما يَلْبِسون ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة الثّانية أنّ الله سبحانه وتعالى لو جعل الشّاهد النّازل إليهم من السّماء ملكًا فى الحقيقة لجعله الله تعالى رجلًا شكلاً ، لأنّ البشر لا يطيقون رؤية الملائكة على حقيقتهم . وبما أنّ كفّار مكّة المتّعنّتين لا يريدون أنْ يفهموا عدم

قدرتهم على رؤية الملك على حقيقته فإنّهم يقولون عن الملك الّذى يرونه فى هيئة الرّجل إنّه رجلٌ شكلاً وحقيقةً وهم إنّما يريدون الشّاهد ملكاً حقيقةً وشكلا . وهكذا يتبيّن أنّ رحمة الله تعالى تلاحق المكّيّين وسواهم بينما هم لا يحسنون فهمًا ولا صنعا . إنّ رحمة الله تعالى لا تستجيب لهم فى تحقيق ما اقترحوا من آيات لأنّ فى ذلك استئصال شأفتهم ولكنّ القوم لا يفهمون . وإنّ رحمة الله تعالى تجعل الملك فى هيئة البشر والإنسان كي يأنسوا به ويرتاحوا إليه وينسجموا معه ولكنّ القوم لا يفقهون. إنّهم يُظْهِرون عدم تلبية اقتراحاتهم بشأن المعجزات عجزًا . وإنّهم بشأن الملك الّذى يظهر لهم فى صورة الرّجل يخلطون على أنفسهم كما خلطوا على أنفسهم من قبل . إنّهم رفضوا كبرى معجزات المصطفى ﷺ وهي القرآن الكريم وطلبوا آياتٍ تقلّ عن هذه الآية فى مجال الإقناع وبذلك هم لبسوا على أنفسهم وخلطوا أولاً . وإنّهم لبسوا على أنفسهم وخلطوا حينما أصرّوا على نزول الملك شاهدًا . وحينما نزل الملك الشّاهد فى هيئة الرّجل كان ثمّة لبسٌ عليهم وخلطٌ من نوعٍ آخر . إنّهم رأوا ملكًا فى هيئة البشر فقالوا إنّه بشرٌ ، فى حين أنّه ملك ولكن فى هيئة البشر رحمةً من الله تعالى بهم . وهكذا تقلّب الكافرون فى اللّبس على أنفسهم وفى الخلط أوّلاً بشأن طلب آياتٍ غير القرآن الكريم ، وآخراً بسبب نزول الملك فى هيئة البشر ، وإنّ كفّار مكّة لتعنّتهم وحمقهم يصرّون على أن ينزل الملك عليهم فى هيئته الأصليّة .

وهكذا يتبيّن أنّنا بصدد مجموعةٍ من الأمور الممتنعة دلّ عليها حرف الامتناع للامتناع : ﴿ لو ﴾ إنّ المَلَكَ بإرادة الله تعالى لم ينزل ، ولو نزل لم ينزل فى هيئته بل فى هيئة البشر ، وقبل ذلك لم ينزل الكتاب فى قرطاسٍ و لم يلمسوه بأيديهم إنّما نزل وحيًا منجّمًا . إنّ عدم استجابة أى اقتراح للمشركين من مظاهر رحمة الله تعالى بهم ولكنّهم قومٌ لا يفقهون .

ولما كان كفّار مكّة ومن شاكلهم من المكذّبين المعرضين عن آيات الله تعالى قد انتهى بهم التّعنّت إلى درك الاستهزاء بالرّسول ﷺ فى المقام الأوّل ، والمعروف أنّ الاستهزاء من أخبث الأسلحة المعنويّة وأفتكها فقد تحوّلت الآية الكريمة التّالية إلى مصير المستهزئين السّابقين كي يأخذ اللّاحقون العظة والعبرة فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٠)

قال تعالى : ﴿ ولقد استهزىء برُسُلٍ من قبلك فحاق بالّذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

إنّ الكلام ليس عاديّاً ولا بسيطًا لأنّه يجيء فى أسلوب القسم المقدّر فإنّ اللّام من: ﴿ ولقد ﴾ لام القَسَم لقَسَمٍ مقدّر[١] هذا إلى إفادة « قد » معنى التّحقيق . وكأنّ المعنى : والله لقد استهزئ يا محمّد برسلٍ مِنْ قَبْلِك مِنْ قِبَلِ أقوامهم المكذّبين المعرضين كقومك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم فحاق بالّذين سخروا منهم ونزل بهم وأحاط[٢] ووقع بهم[٣] وأصابهم[٤] العذاب الّذى استهزءوا به[٥] وقيل إنّ أصل « حاق » « حقّ » فقُلِب ، نحو زلّ وزال وقد قرئ : ﴿ فأزلّهما الشّيطان ﴾ وأزالهما . وعلى هذا ذمّه وذامه[٦] .

وإنّ رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيءٍ ووسعت كفّار مكّة ومن شاكلهم بعد أن تشير إلى المستهزئين السّابقين الّذين دمّر الله تعالى عليهم بقصد أن يأخذ المتأخّرون العبرة تأمر هؤلاء المستهزئين المتأخّرين بأن يسيروا فى الأرض وأن ينظروا بأعينهم الّتى فى رءوسهم كيف كان عاقبة المكذّبين فإلى .

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٤/٧٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٧/٩٨ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٧/٩٩ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حاق » ١٣٧ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٧/٩٩ .
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حاق » ١٣٧ .

الآيــة رقــم (١١)

قال تعالى : ﴿ قل سيروا فى الرض ثمّ انظروا كيف كان عاقبة المكذّبين ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك المكذّبين المعرضين المستهزئين وأن يأمرهم أمر إباحة بأن يسيروا فى الأرض وأن يضربوا فيها ويسيحوا من أجل غايةٍ جليلة . وما هذه الغاية الجليلة ؟ أن ينظروا ليس فقط بأعينهم الّتى فى رءوسهم ولكن بعين البصيرة كذلك وأن يتدبّروا ويعوا كيف كان عاقبة المكذّبين السّابقين الّذين دمّر الله تعالى عليهم تدميرًا والّذين يمرّ عليهم كفّار مكّة فى أسفارهم مصبحين وباللّيل ولكنّهم لا يتدبّرون ولا يتّعظون ولا يتفكّرون .

وانظر إلى حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ الّذي يدلّ أساسًا على التّرتيب مع التّراخى . إنّ الحرف : ﴿ ثمّ ﴾ هو الّذى يأتى ولا يأتى حرف العطف « الواو » مع إمكان ذلك فلا يقال : وانظروا ولكن يقال : ﴿ ثمّ انظروا ﴾ وسبق أن تبيّنا فى هذا القسم وفى الآيتين الكريمتين الأوليين على جهة الخصوص مجىء حرف العطف : ﴿ ثمّ ﴾ فى معناه القرآنيّ العجيب وليس فى المعنى اللّغويّ القريب . إنّ المعنى اللّغويّ لحرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ إفادته التّرتيب مع التّراخي . وإنّ المعنى القصيّ له فى الآيتين الكريمتين يتّخذ من التّرتيب الزّمانيّ مع التّراخي مطيّةً للدّلالة على المعنى البعيد غير المقبول وغير المعقول الّذى وصل إليه المشركون غير المنطقيّين نتيجةً غير متوقّعة للمقدّمة المعقولة والمنطقيّة . إنّهم مرّةً يعلمون أنّ الله تعالى هو خالق الكون ومع ذلك هم لا ينتهون بالمقدّمة إلى نتيجتها المنطقيّة بأن يفردوه جلّ وعلا بالعبادة ولكنهم يسوّون به غيره جلّ وعلا . وإنّهم مرّةً أخرى يعلمون أنّ الله تعالى هو خالقهم وهو مدبّر شئونهم فى الأولى والآخرة ومع ذلك هم يشكّون فى البعث والحساب .

وبشأن القول : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثمّ انظروا ﴾ تبيّن أنّ حرف العطف ﴿ ثم ﴾ هو الّذي يأتى وليس حرف العطف « و » وبالتّالى لا يقال : سيروا فى الأرض وانظروا . ويفهم من العدول عن « الواو » إلى ﴿ ثمّ ﴾ أنّ ثمّة معنًى آخر بعيدًا وراء المعنى الأوّل القريب من الدّلالة على التّرتيب مع التّعقيب . وهذا المعنى البعيد المستفاد من التّحوّل غير المألوف من « الواو » إلى ﴿ ثمّ ﴾ يراد منه التّنبيه إلى أهميّة النّظر والتّدبّر والتّفكّر ، والتّنبيه إلى أنّ النّظر ينبغي أن يكون بتؤدة وإمعان كي يؤتي بإذن الله تعالى أكله ، والتّنبيه إلى أنّ النّظر حينما تتحقّق شروطه سوف يفضى بإذن الله تعالى القدير إلى النّتيجة المنطقيّة والغاية المأمولة بأخذ العبرة والعودة إلى الجادّة . وانظر إلى هذه اللّفتة البارعة من الزّمخشريّ فى الكشّاف[1] : « وأمّا قوله : ﴿ سيروا فى الأرض ثمّ انظروا ﴾ فمعناه إباحة السّير فى الأرض للتّجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النّظر فى آثار الهالكين . ونبّه على ذلك بثمّ لتباعد ما بين الواجب والمباح » يريد أنّ السّير فى الأرض مباح وأنّ النّظر والتّدبّر والتّفكّر كلّ ذلك واجب .

---

(١) ١/٤٩٧ .

[٢]

« إرشاداتٌ للنّبيّ ﷺ وشهادةٌ من الله تعالى له ودعوةٌ إلى الإيمان »

الآيـات (١٢ ـ ٢١)

قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ
كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ
وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ
رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ
رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ
فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾
قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ
ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿٢١﴾

دارت آيات القسم الأوّل السّابق حول مجموعةٍ من المسائل تتعلّق بالهدف الأوّل للمكّيّ من القرآن وهو وضع أسس العقيدة . لقد دارت الإحدى عشرة آيةً حول خلق السّماوات والأرض والظّلمات والنّور ، أو المكان والزّمان ، وحول خلق الإنسان الّذى يغلب عليه الكفر بالتّكذيب والإعراض والاستهزاء والتّعنّت فى طلب المزيد من الآيات الّتى تقلّ فى مجال الإقناع عادةً عن الآية الّتى اصطفى الله تعالى بها رسوله أو رسله ، وحول عدم أخذ العبرة من مصير السّابقين المكذّبين . وإنّ آيات هذا القسم التّالى تضرب على الوتر ذاته وتواصل المسيرة وتتحدّث عن المكان والزّمان والكافرين هذا إلى التّرهيب والتّرغيب اللّذين يصبغان الآيات الكريمة بلونيهما مع غلبة التّرهيب لأنّ أكثر النّاس آنذاك كافرون . إنّ السّياق يقرّر أنّ لله تعالى ما فى السّماوات والأرض مِلْكاً وخلقاً وعبيدا ، وأنّ رحمة الله تعالى الّذى بيده ملكوت كلّ شيء واسعة ، فعلى النّاس أن يعلموا بأنّهم محشورون إلى يوم القيامة فيعملوا وفق هذا العلم وإلاّ كانوا خاسرين . وإثر الحديث عن المكان يأتى الحديث عن الزّمان فى هيئة اللّيل والنّهار . وكما كان لله تعالى ما فى السّماوات والأرض كان له جلّ وعلا ما سكن فى اللّيل والنّهار ، وكما كان الحديث عن السّماوات والأرض من زاويةٍ جديدة هي إبداع الله تعالى لهما على غير مثالٍ سابق كان الحديث عن الإنسان من زاويةٍ جديدة هي حاجته إلى الطّعام الّذى يرزقه الله تعالى به . وإثر الأمر بالتّوحيد والنّهي عن الشّرك فى أبلغ تعبير يغلب على الآيات الكريمات طابع التّرهيب والتّرغيب علماً بأنّ حظّ التّرهيب هو الأوفر . إنّ التّرهيب يتجلّى فى القول : ﴿ قل إنّى أخاف إن عصيت ربّي عذاب يومٍ عظيم ﴾ وإنّ التّرغيب يتجلّى فى القول : ﴿ من يصرف عنه يومئذٍ فقد رحمه . وذلك الفوز المبين ﴾ ويتجلّى فى هذه الآية الكريمة التّرهيب والتّرغيب معًا : ﴿ وإن يمسسك الله بضرٍ

فلا كاشف له إلاّ هو وإن يمسسك بخيرٍ فهو على كلّ شيء قدير ﴾ كما يتجلّيان في القول : ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ إنّ صفة القهر تتعلّق بالتّرهيب وإنّ صفتي : ﴿ الحكيم الخبير ﴾ تتعلّقان بالتّرغيب . ويتعلّق بصفة القهر عِظَمُ شهادة الحقّ جلّ وعلا الّذي يشهد بين المصطفى ﷺ وبين الكافرين ، والّذي أنزل على عبده القرآن الكريم الّذي يُنْذَر به الكافرون وكلُّ النّاس إلى يوم الدّين . ولمّا كان جوهر الخلاف حول قضيّة التّوحيد فإنّ الآية الكريمة الّتي تدور حول الشّهادة تقرّر أنّ الله تعالى واحدٌ لا شريك له ، كما تقرّر أن المصطفى ﷺ بريء ممّا يشركون . ولمّا كانت رسالة محمّد بن عبد الله ﷺ عالميّةً منذ فجرها فقد قرّر السّياق أنّ أهل الكتاب يعرفون محمّد بن عبد الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، كما قرّر أن الّذين لا يؤمنون هم الّذين خسروا أنفسهم قبل غيرهم . إنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله تعالى كذبًا أو كذّب بآيات الله تعالى وإنّه لا يفلح الظّالمون .

الآيـــــة رقم (١٢)

قال تعالى : ﴿ قل لمن ما في السّماوات والأرض قل لله . كتب على نفسه الرّحمة . ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . الّذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك المشركين مع الله تعالى سواه المكذّبين المعرضين المستهزئين المنكرين للبعث وأن يسألهم على سبيل التّقريع والتّوبيخ: ﴿ لِمَنْ ما في السّماوات والأرض ﴾ مِلْكاً وخَلْقاً وعبيدا ؟ ولمّا كان ثمّة جوابٌ واحدٌ فقط على هذا السّؤال كان ثمّة الأمر للمصطفى ﷺ بأن ينطق بذلك الجواب : ﴿ قل لله ﴾ لأنّهم إن لم يقولوه فلا جواب غيره ولا ردّ سواه . ثمّ إنّ المشركين إن لم يقولوا هذا الجواب بلسان المقال قالوه بلسان الحال .

ولما كان السّؤال والجواب متعلّقين بالمُلْكِ والتّدبير ، وسبق أن كان فى القسم السّابق حديثٌ عن الخلق وعن القدرة وعن العلم ، وكلّ هذه المعانى تشير إلى القدرة المطلقة للذّات العليّة الّتى لها وحدها دون سواها الخلق والأمر ، فإنّ هذه القدرة أو القوّة أو التّرهيب يُرْدَف بالتّرغيب وذلك فى قول ربّ العزّة ذى الجلال والإكرام : ﴿ كتب على نفسه الرّحمة ﴾ إنّ ربّ العزّة الّذى لا يظلم مثقال ذرّة والّذى هيّأ لعباده كلّ السّبل الّتى تهديهم إلى طرق الجنّة وسبل السّلام يوجب على نفسه عزّ وجلّ إيجاب فضلٍ وكرم لا إيجاب لزوم[١] ويقضى[٢] على نفسه الرّحمة لجميع خلقه ، مؤمنهم وكافرهم . ما أرأف هذا الرّبّ الكريم بخلقه وأشدّ رحمته جلّ وعلا بهم ، وما أحرى النّاس أن يتّجهوا إلى بارئهم جلّ وعلا ، وأن يبادروا إلى امتثال أوامره عزّ وجلّ ، وما أخلق غير المسلم أن يبادر إلى اعتناق دين الإسلام الّذى لا يقبل الله تعالى دينًا سواه والذّى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيين وأشرف المرسلين . جاء فى الحديث الّذى أخرجه أحمد ومسلم والبيهقيّ فى الأسماء والصّفات أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ الله تعالى خلق مائة رحمة فوضع منها واحدةً فى الأرض ، فبها تتعاطف البهائم ، وترفع الفرس رجلها لئلاّ تطأ ولدها، وبها تتعاطف الطّير والحيتان ، وعنده تسعٌ وتسعون رحمة ، فإذا كان يوم القيامة صيّر تلك الرّحمة مع التّسعة والتّسعين وبثّها فى عباده[٣] وثبت فى الصّحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال النّبيّ ﷺ : إنّ الله لمّا خلق الخلق كتب كتابًا عنده فوق العرش : إنّ رحمتى تغلب غضبى[٤] ورواية الطّبريّ[٥] عن أبى هريرة عن النّبيّ ﷺ قال : لمّا فرغ الله من الخلق كتب كتابًا : إنّ رحمتى سبقت غضبى .

---

(١) البحر المحيط ٨١/١ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩٩/٧ .
(٣) تفسير ابن عطيّة ١٢٧/٥ وتفسير الطّبريّ ٩٩/٧ .
(٤) تفسير ابن كثير ١٢٥/٢ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٩٩/٧ .

ولا شكّ أنّ الشّقيّ حقّاً هو الّذى لا تشمله ـ والعياذ بالله رحمة البرّ الرّحيم فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود .

وفى الجزئيّة التّالية يأتى الحديث عن ذلك اليوم المهيب : ﴿ ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ وإنّ أوّل ما يلفت النّظر مجىء حرف الجرّ ﴿ إلى ﴾ وعدم الاستغناء عنه مع إمكان ذلك من ناحية ، ومجىء هذا الحرف بالذّات وليس حرف الجرّ : ﴿ فى ﴾ مثلاً من ناحية أخرى . إنّ مجىء حرف الجرّ : ﴿ إلى ﴾ هنا يضمّن جملة : ﴿ ليجمعنّكم ﴾ معنى جملة ليحشرنّكم مثلاً . يقول أبو حيّان[1] : « والظّاهر أنّ إلى للغاية ، والمعنى : ليحشرنّكم إلى يوم القيامة » وفى تفسير القرطبيّ[2] : ﴿ ليجمعنّكم : ليمهلنّكم وليؤخّرنّ جمعكم ﴾ إنّه فى يوم القيامة الّذى لا ريب فيه ولا شك ليحشرنّهم الله تعالى إليه وليجمعنّهم فى ذلك اليوم من أجل فصل الحساب .

أما وقد بيّنت الآية الكريمة كلّ هذه المعاني والأبعاد فمن هم الأخسرون على الحقيقة والتّأكيد ؟ إنّهم الّذين لا يؤمنون بل يصرّون على الكفر . إنّ هذا المعنى قرّرته الجزئيّة الكريمة الأخيرة : ﴿ الّذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ وهل وراء خسران الإنسان نفسه خسارة ؟ لا والله الّذى لا إله إلاّ هو . وهل الّذى يخسر نفسه ويهوى بها فى مهاوى الرّدى يتوقّع منه غير إلحاق الخسران والهلاك بالآخرين ؟ لا يتوقّع منه غير ذلك . إنّ هذا هو حال المكذّبين المصرّين على الإعراض عن آيات الله تعالى البيّنات ، ومنها هذه الآية الكريمة .

وإذا كانت الآية الكريمة الأولى من السّورة الكريمة تتحدّث عن خلق السّماوات والأرض وجعل الظّلمات والنّور ، وكانت الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث عن السّماوات والأرض ، فإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن اللّيل والنهار أي الظّلمات والنّور ، والزّمان بعد المكان فإلى :

---

(١) البحر المحيط ٤/٨٢ .

(٢) ٢٣٩٢ .

الآيـــــة رقم (١٣)

قال تعالى : ﴿ وله ما سكن فى اللّيل والنّهار وهو السّميع العليم ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى له وحده لا شريك له ، كلّ ما سكن وحلّ فى اللّيل والنّهار من مخلوقات الله تعالى . وإذا كانت جملة : ﴿ سكن ﴾ ذات علاقة بالسُّكنى[1] والاستقرار ، فإنّ لهذه الجملة علاقةً كذلك بالسّكينة والهدوء والاطمئنان ، وقد قال تعالى[2] : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا ﴾ ومن المعروف أنّ الزّمن كلّه لا يخرج عن كونه فى ليلٍ أو نهار ، لأنّه لا يوجد ليلٌ فى مكانٍ إلاّ ويقابله فى مكانٍ آخر نهار . وبهذا يكون القول : ﴿ وله ما سكن فى اللّيل والنّهار ﴾ شاملاً لكلّ المخلوقات وكلّ الأماكن وكلّ الأزمنة . إنّ هذه المخلوقات لها مساكنها الّتى تأوى إليها وتسكن بعد عملٍ وحركة . وإذا كانت الرّاحة فى العادة ليلاً ولا تمتنع نهاراً ، فإنّ الحركة فى العادة نهارًا ولا تمتنع ليلاً . وانظر إلى هاتين الصّفتين فى حقّ الذّات العليّة : ﴿ وهو السّميع العليم ﴾ ويلاحظ أنّ الصّفة : ﴿ السّميع ﴾ تأتى متقدّمةً وذلك على غرار لفظة ﴿ اللّيل ﴾ الّتى جاءت فى الآية الكريمة متقدمة ، وأنّ الصّفة : ﴿ العليم ﴾ وكذلك لفظة : ﴿ النّهار ﴾ تأتيان فى الآية الكريمة متأخّرتين فى الذّكر . وإنّ كلاًّ من التّقديم والتّأخير مغرٍ بالتأمّل .

من المعروف أنّ اللّيل الّذى يمتاز بظلامه تعمل فيه أهمّ الحواسّ وهي حاسّة السّمع. فإذا عرفنا أنّ اللّيل أو الظّلام هو الأصل وأنّ النّهار أو النّور طارئٌ عليه ، استطعنا أن نقول فى ضوء هذه الحقيقة وفى ضوء الحقيقة الأخرى من كون حاسّة السّمع فى مجال التّعلّم أو التّلقّى تتقدّم سائر الحواسّ بما فيها حاسة الإبصار ووسيلتها العين، استطعنا أن نقول إنّ الانسجام غايةٌ فى القوة بين اللّيل أو الظّلام وبين السّمع

---

(١) تفسير ابن عطيّة ١٤١/٥ . (٢) سورة النّحل ٨٠ .

أو الأذن . أليست الأذن هي الّتى تعمل فى الظّلام وفى النّور ، بينما العين تعمل فى النّور وحده ؟ بلى . وهكذا يتقدّم كلّ من اللّيل وصفة السّمع فى الآية الكريمة .

وفى المقابل يتأخّر النّهار وصفة العلم فى الآية الكريمة . ومن أهمّ مقوّمات النّهار النّور . والمعروف أنّ العلم نور . ونحن فى العادة نربط بين الجهل والظّلمات كما نربط بين العلم والنّور . وفى نور النّهار تعمل حاسّة الإبصار بل تنشط ، وإنّ العين وسيلة الإبصار . وبشأن العلم تدرك البصيرة نوره . وللعين دورها بشأن كلّ من نور النهار ونور العلم لأنّ العين المبصرة وسيلة القراءة .

وهكذا يتبيّن التّجانس فى الآية الكريمة بين اللّيل وصفة ﴿ السّميع ﴾ وبين النّهار وصفة ﴿ العليم ﴾ كما يتبيّن التّجانس بين اللّيل والنّهار بسبب التّضادّ فى الصفات، وبين السّمع والبصر بسبب التّكامل بين الحاسّتين فى مجال الإدراك والعلم ، مع تقدّم اللّيل باعتباره أصلاً وتقدّم السّمع لأنّه أهمّ الحواسّ ووسائل إدراك العلم . ويبدو من الآيتين الكريمتين التّاليتين من سورة القصص[1] انسجام السّمع مع اللّيل وانسجام البصر مع النّهار ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم اللّيل سرمداً إلى يوم القيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بضياء . أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النّهار سرمداً إلى يوم القيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه . أفلا تبصرون ﴾ وتبيّن الآية الكريمة التّالية من سورة القصص[2] رحمة الله تعالى الّذى جعل اللّيل لنسكن فيه أساسًا والنّهار لنبتغي فيه من فضل الله تعالى أساسًا لعلنا نشكر لله تعالى رحمته ونعمته . قال تعالى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم اللّيل والنّهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون ﴾ قال تعالى : ﴿ وله ما سكن فى اللّيل والنّهار وهو السّميع العليم ﴾ والمعروف أنّ اسم الموصول : ﴿ ما ﴾ يستخدم لغير العاقل أساسًا وكأنّ الآية الكريمة باستعمالها : ﴿ ما ﴾ وليس اسم الموصول للعاقل : ﴿ مَنْ ﴾ تنبّه إلى كثرة غير العاقل بالقياس إلى العاقل من بين ما يسكن فى اللّيل والنّهار ويستقرّ ويهدأ .

---

(١) الآية ٧١ ، ٧٢ .

(٢) الآية ٧٣ .

وإذا كان السّياق قد أشار إلى السّماوات والأرض ، وإلى اللّيل والنّهار ، أو الظّلمات والنّور ، وذلك على غرار ترتيب هذه العناصر فى الآية الكريمة الأولى من السّورة الكريمة فإنّ السّياق يتحوّل فى الآية الكريمة التّالية إلى الحديث فى توحيد الله تعالى وذلك على غرار حديث الآية الكريمة الثالثة من السّورة الكريمة فى هذا المعنى إثر الحديث عن عمليّة خلق السّماوات والأرض والإنسان فى الآيتين الكريمتين الأوليين فإلى .

الآيـــــة رقم (١٤)

قال تعالى : ﴿ قل أَغَيْرَ الله أتّخذ وليّاً فاطِرِ السّماوات والأرض وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم . قل إنّى أُمِرْت أن أكونَ أوّل من أسلم ولا تكونَنَّ من المشركين ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يسأل المشركين فى أسلوب الإنكار : أغير الله تعالى أتّخذ وليّاً ونصيرًا فاطر السّماوات والأرض وموجدهما من العدم على غير مثالٍ سابق وهو جلّ وعلا يُطْعِم عباده ولا يُطْعَم ، يَرْزُق ولا يُرْزَق[1] ومن البيّن أنّ الحديث عن السّماوات والأرض يضيف جديداً ، فإنّه يقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى هو فاطر السّماوات والأرض وخالقهما ومبدعهما . ومن البيّن كذلك أنّ الحديث الّذى يتعلّق بالإنسان يضيف هو الآخر جديداً . أمّا هذا الجديد فهو المتعلّق بكون الإنسان إنّما يطعمه بارئه جلّ وعلا ويرزقه . وإذا كان الحديث عن السّماوات والأرض من زاويةٍ مهمّة هي الإبداع ، فإنّ الحديث عن الإنسان من زاويةٍ مهمّةٍ أيضًا هي الطّعام الّذى تقوم عليه بإرادة الله تعالى حياة الإنسان والّذى يعتبر قِوامَه .

ولمّا كانت الآية الكريمة قد أمرت فى صدرها المصطفى ﷺ ، سيّد ولد آدم ، أن ينكر على المشركين دعوتهم له عليه الصّلاة والسّلام إلى الشّرك ، وإنّ لسان الحال

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ١٠٢/٧ والبحر المحيط ٨٥/٤ والكشّاف ٤٩٧/١ وتفسير القرطبيّ ٢٣٩٤ وتفسير ابن عطيّة ١٤٣/٥ وتفسير ابن كثير ١٢٥/٢ .

يدعو إلى توحيد الله تعالى فى المقابل ، فإنّ المفهوم بلسان الحال يصير منطوقًا به بلسان المقال ، وذلك فى القول خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ قل إنّى أمرت أن أكون أوّل من أسلم ولا تكوننّ من المشركين ﴾ ومن البيّن أنّنا بصدد أمرٍ بالتّوحيد ونهي عن الشّرك . ومعنى القول : ﴿ إنّى أمرت أن أكون أوّل من أسلم ﴾ إنّى أمرني الله سبحانه وتعالى أن أكون أوّل من أسلم من هذه الأمّة المحمّدية المسلمة لله ربّ العالمين . ومن البيّن اختلاف التّعبيرين بين الأمر بالتّوحيد والنّهي عن الشّرك . إنّ الأمر بالتّوحيد يأتى على لسان المصطفى ﷺ ، أمّا النّهي عن الشّرك فإنّه يجيء فى هذا الأسلوب المغاير ، وهو أسلوب النّهي : ﴿ ولا تكوننّ من المشركين ﴾ ومن البيّن ملاءمة هذا التّعبير كي يكون فاصلة ، ومن البيّن كذلك أنّه بسبب اختلاف الأسلوبين بشأن الأمر والنّهي جاء الأمر منطوقًا بلفظه : ﴿ أُمِرْت ﴾ فى حين جاء النّهي منطوقًا بمعناه ، بمعنى أنّ جملة : ﴿ نُهيت ﴾ منطوق بمعناها . وبعد الأمر بالتّوحيد والنّهي عن الشّرك يجيء على لسان المصطفى ﷺ شيءٌ من التّرهيب والتّرغيب ، وذلك على غرار الإنكار على المشركين الطلب منه عليه الصّلاة والسّلام أن يتّخذ غير الله تعالى وليّاً ، وعلى غرار الأمر بإسلام الوجه لله ربّ العالمين ، وذلك فى الآيتين الكريمتين التّاليتين وهاتان هما .

الآيتـــان رقم (١٥ ، ١٦)

قال تعالى : ﴿ قل إنّى أخاف إن عصيت ربّى عذاب يومٍ عظيم . من يُصْرَف عنه يومئذٍ فقد رحمه . وذلك الفوز المبين ﴾ .

تبدأ الآية الكريمة الأولى بجملة ﴿ قل ﴾ خطابًا للمصطفى ﷺ فى المقام الأوّل فى موضعٍ من بين أربعةٍ وأربعين موضعًا فى السّورة الكريمة وذلك بأكثر من أيّ سورةٍ أخرى من سور القرآن الكريم . إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول